REGD No. LW/NP 59
ALBAAS-EL-ISLAMI

صدر حديثاً :

الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي

كاتباً ومفكراً

في ضوء مؤلفاته وكتاباته
وكما يراه علماء العرب والمسلمين وأدباؤهم

دراسة واستعراض

بقلم :
نذر الحفيظ الندوى الأزهرى
أستاذ دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

الناشر :
رابطة الأدب الاسلامى
(ندوة العلماء) لكهنؤ (الهند)

قام بالنشر و التوزيع جمال أحمد الندوي

مؤسسة الصحافة والنشر
ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

شعارنا الوحيد
الحلال الإسلام من جديد

السنة ٨ العدد ٣١ عاشر الأول ١٤٠٧هـ يناير ١٩٨٧م

البعث الإسلامي

تصدرها مؤسسة الصحافة والنشر
ندوة العلماء، ص.ب ٩٣ - لكهنؤ (الهند)

أنشأها:
فقيد الدعوة الاسلامية الاستاذ محمد الحسني رحمه الله
في عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م

البعث الاسلامي

رئاسة التحرير
سعيد الأعظمي الندوي
واضح رشيد الندوي

المجلد الحادي والثلاثون ★ جمادى الأولى ١٤٠٧هـ — يناير ١٩٨٧م ★ العدد الثامن

المراسلات:
البعث الإسلامي ندوة العلماء، ص.ب ٩٣. لكهنؤ (الهند)
ALBAAS-EL-ISLAMI
Nadwat-ul-Ulama, P. O. Box 93,
LUCKNOW (INDIA)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخ الكريم ، حفظه الله تعالى

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته ، وبعد :

فان مجلتك « البعث الاسلامى » تجتاز الآن عامها الحادى و الثلاثين ، ومى ماضية فى جهادها المتواضع منذ أمد بعيد ، رغم ضآلة وسائلها وقلة إمكانياتها ، و قائمة بواجبها الاسلامى على جبهة معادية مليئة بالأحقاد و الكراهية و مشحونة بوسائل الهدم و التخريب و فى بلد علمانى ليس الاسلام دينه الرسمى ، و ليست اللغة العربية لغته القومية .

فهلا نرجو منك - أيها القارىء الكريم - أن تشعر ببعض واجبك نحو مجلتك هذه و تتكرم ببذل شئ من وقتك الغالى فى سبيلها ، و ذلك أن تكسب لمجلتك هذه عدداً من إخوانك المشتركين و تتفضل بارسال اشتراكاتهم حسب التفاصيل المذكورة أدناه ، أو تقوم بانشاء وكالة للمجلة فى بلدك أو مجتمعك الذى تعيش فيه و تفيدنا بذلك فى أول فرصة ممكنة - نرجو أن لا يفوتك الاهتمام بهذا الموضوع الاسلامى فى أى حال ، وجزاؤك على الله الذى لا تنفد خزائنه.

الاشتراكات السنوية :

★ فى الهند : / ٥٠ روبية ، ثمن النسخة خمس روبيات .

★ فى العالم العربى :/١٥ دولاراً بالبريد السطحى ، /٣٠ دولاراً بالبريد الجوى.

★ فى أوربا و أمريكا و إفريقيا :/١٥ دولاراً بالبريد العادى ، / ٥٠ دولاراً بالبريد الجوى .

★ فى باكستان و بنغلاديش ودول شرق آسيا : ١٥ دولاراً بالبريد السطحى، /٣٠ دولاراً بالبريد الجوى .

المراسلات : مكتب البعث الاسلامى ، مؤسسة الصحافة و النشر
ندوة العلماء ص . ب ٩٣ لكناؤ (الهند)

ALBAASELISLAMI - C/o. NADWAT ULULAMA
P. O. Box, 93. Lucknow (INDIA)

المجلة لا تتقيد بكل فكر لكل كاتب ، ينشر فيها

في هذا العدد

★ الافتتاحيـــــــة

العالم يترقب عودة الأمة الاسلامية إلى دورها القيادى — سعيد الأعظمى

★ التوجيـــــه الاسلامى

الوحدة العقائدية الحضارية العالمية — سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى ١٠

معالم الاتجاه الحضارى الاسلامى فى تفسير التاريخ — دكتور عبد الحليم عويس ١٥

الطريقة الصوفية و العلنية — الدكتور السيد فهمى محمد الشنارى ٢٦

★ الدعوة الاســـــلامية

« وجوب أداء الصلاة فى الجماعة » — سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ٣٣

بين الشك و اليقين — الدكتور محمد سعد الشويعر ٣٨

★ دراســـات و أبحـــاث

منهج الامام مالك فى كتابه « الموطأ » — دكتور تقى الدين الندوى ٥٠

أخطاء المستشرقين حول أبى العلاء المعرى — بقلم أديب العربية العلامة عبد العزيز الميمنى ٥٩

قضية المسلمين ، دراسة شاملة ، وعرض موضوعى — الأستاذ مصطفى محمد الطحان ٧٤

★ الأدب المخضـــــرم

عبد الله بن رواحة الأنصارى — سعيد الاعظمى الندوى ٨٠

★ من أعلام المسلمين فى الهند

الامام أبو الحسنات محمد عبد الحى اللكنوى — الأستاذ محمد أرشد الأعظمى الندوى ٩٤

نظم (شعر) — الأستاذ احمد حسن فضاء ١٩

★ كتب حديثـــــة

تفسير سورة الاخلاص — قلم التحرير ٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحيـــــة :

العالم يترقب عودة الأمة الاسلامية إلى دورهـا القيادى

إذا قيل : إن هذا العالم بجميع ما فيه من علوم وحضارات ، مدين فى بقائه وازدهاره للاسلام ، لكان ذلك أصدق كلام .

ذلك أن الواقع الذى عاشه الانسان قبل الاسلام يشير إلى تلك النياهب من الظلمات التى سدت دونه الطريق ، و نتيجة لذلك فقد ضل الخط السوى ، وظل يتيه فى متاهات الحيرة و الشقاء مما أدى به إلى ممارسات غير طبيعية من الظلم و العداوة و القسوة ، و الاختلال ، والهمجية ، تولتها قطاعات بشرية مختلفة ذات مستويات متعددة ، لقد كان الانسان فقد الشعور بأنه إنسان ، فشغله كل شعور سوى هذا الشعور ، و قام بعد ذلك بكل ما يمكن أن يتصور من بهيمة أوسبع ضار ، و لم يكن هناك أى مبرر لهذه الظواهر الغير الطبيعية أن تدوم أو تتحكم فى المجتمعات البشرية ، إذ أن ذلك يعارض طبيعة الكون و فطرة الله التى فطر الناس عليها .

فكان لا بد من أن تنتهى هذه المسلسلات من الحالات الشاذة ، سواء بنهاية العالم لآخر مرة أو بانقاذه من الوقوع فى حفرة النار ، ولكن جاشت الرحمة الالهية و أنقذته من مصيره المشئوم المحتوم ، و كتب الله له العودة إلى الرشد و الهداية وإلى ساحة العزة و النور : وذلك ما عبر عنه كتاب الله تعالى فى صراحة وقوة فقال : و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته

إخواناً ، وكيتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين لكم آياته لعلكم تهتدون ، إن ذلك من آيات رحمة الله وحكمته فى الانسان و العالم ، فقد أراد بهما خيراً لم يسبق إلى الناس ، و لم يشهدوا له مثيلا فى أى فترة من تاريخ العالم الطويل .

وأخرجت أمة الاسلام لتمثيل ذلك الدور العظيم الذى أكرمها الله به ، وتأكيد أن غاية الحياة فى هذه الدنيا هى ارتباطها بمصدر القوة و الخلق و الأمر ، وتلقى التوجيهات منه فى كل صغير وكبير ، و الشعور بأنها أمانة فى يد الانسان فلا يضعها إلا فى محلها ، ولا يستخدمها إلا فى الغرض الذى يرفعها إلى مكانتها اللائقة ، و مادامت هذه الأمة تشعر بقيمتها و تعرف أهميتها ، و تقوم بدورها من خلال تعاليم الاسلام و توجيهات الشريعة تمتع هذا العالم الواسع العظيم بالأمن و الهدوء والاستقرار و السعادة ، و عاش البشر على اختلاف مذاهبهم و آرائهم وتباين نظراتهم و عقائدهم فى ظل من الهدوء النفسى و الاستقرار الداخلى .

أخرجت هذه الأمة التى سماها الله تعالى (خير أمة أخرجت للناس) لتشق الطريق السليم و الصراط المستقيم فى ضوء الهداية السماوية ومن خلال العقبات و العراقيل ، نحو المنهج السماوى الكريم الخالد للحياة ، و هو المنهج الذى ينبع من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الايمان بالله ، منهج الرشد و الاستقامة والطاعة ، ومنهج الاخلاص و العبودية الخالصة لله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة و ذلك دين القيمة » فمن مسئوليات هذه الأمة الأساسية أن تركز مجهوداتها كلها و تضع إمكانياتها كلها فى تحقيق هذا المنهج الالهى للحياة فى أرض الله تعالى ، و تعيش فى هذه الدنيا كأمة ذات طابع سماوى خاص ، وميزة إسلامية ، وسلوك إسلامى

نبيل تتميز فى كل مناسبة و مع كل شخص و فى كل مكان و وقت ، بأخلاقها و عقيدتها و خصائصها الدينية و تصلبها فى الأصول و إصرارها على الطاعة وابتعادها عن معصية الخالق فى كل لحظة داخلية أوخارجية ، انفرادية أو اجتماعية ، حتى تتحول حياتها من قول إلى العمل و من تفسير و تعبير لفظيين إلى حركات و نشاطات و أعمال وأخلاق و علاقات و ارتباطات ، لا تحيد فى أى من ذلك قيد شعره عن مغزى الايمان و محجة الطاعة .

إن هذه الأمة - أفراداً و جماعات - تتلقى من الله وحده و من شريعته التى أنزلها عن طريق رسوله خاتم النبيين محمد ﷺ جميع الاشارات فى أحداث الحياة و شئون المجتمع ، و كل التوجيهات فى جميع القضايا و المشكلات التى تتجدد أو تكون نتيجة للأفكار و الرؤى الانسانية و تنشأ من خلال أكوام الفلسفات و النظرات المادية أو تنبعث من ركام الحضارات البائدة و المدنيات الزائفة ، ذلك أنها لا تعتبر قائمة بعهدها ، و محققة غاية وجودها وإخراجها للناس ، و لا سالكة مسالكها الوضيئة المشرقة ، و لا تعتبر ممثلة لرسالتها الفريدة للحياة و الكون و الانسان ، التى خصها الله بها ، و لا تنجح فى هدفها ، من صناعة الانسان على أساس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، و فى ضوء الايمان بالله و العقيدة الراسخة ، و لا يسعها أن تقدم للعالم و أممه من خير الأمن و السلام و الحب والوئام والسعادة والرفاهية ، و لا تستطيع أن تتولى قيادة النوع البشرى و هدايته فى جميع شئونه و قضاياه و على جميع المستويات و المعايير ، إلا إذا اتصلت بمنبع إيمانها و مركز طاقاتها و تلقت فى كل ذلك من الله وحده ، و من شريعة الله وحدها ، و من كتاب الله و سنة رسوله وحدهما ، كل ما تحتاج إليه من تعليمات و توجيهات و إرشادات و أحكام .

من خلال هذا المنصب العظيم و السلوك المتميز نهضت هذه الأمة أفراداً و جماعات كنموذج مثالى للعالم أجمع ، إنها قدمت نماذج من كل نوع فى جميع المجالات الحيوية التى تلازم الحياة فى كل قوم وأمة ، إن هذه الأمة أسهمت فى بناء الحياة الكريمة السعيدة بما أكرمها الله به من خلال الفتوة و الايمان ، و من صفات الرجولة و الشهامة و العمل والاجتهاد و الشعور بالمسئولية ، ومن خصائص العبودية و التوكل والانابة و الثقة بالله تعالى بمعناها الشامل الكامل ، و الاستقامة و الثبات على المبدأ ، و التضحية بالنفس و المال و التمسك بشريعة الله فى جميع الأحوال و الظروف ، ومع جميع الأنواع من الناس ، و فى السر و الاعلان ، و فى داخل البيت و خارجه على السواء .

إنها قامت ببناء حضارة إنسانية كريمة ، مؤسسة على أسس من الفضائل الخلقية و المثل العليا و القيم الروحية الأخلاقية ، و إن هذه الحضارة أنجبت نماذج عالية من البشر الذين مثلوا الاسلام بمعناه الواسع الشامل على مسرح التاريخ ، و فى ساحات الحياة كلها ، الذين مثلوا حياة الايمان و الورع و الطاعة ، وحياة الوحدة و الاعتصام بحبل الله ، و التعاون على البر والتقوى ، فكانت أمة الاسلام أقوى أمة و أمثلها خضعت أمام قوتها و مثلها الرائعة شعوب العالم كلها ، واحتذت حذوها ، و اقتدت بها فى جميع أساليب الحياة و مجالاتها .

من هنالك وفق الله هذه الأمة العظيمة أن تعطى للناس كلهم و لأصحاب الديانات والكتب السماوية السابقة مثالا فى القيادة العالمية ، وبناء الحياة والحضارة و إقامة الحكم و الدولة ، وتحلية الانسان بالفضائل و المكرمات ، وتعمير القلوب بذكر الله و الاتصال بذاته فى كل وقت ولمحة ، ولدى كل نشاط و عمل ، وفقها الله لكى تمنح الناس تصوراً صحيحاً لحياة الانسان و علاقته بالناس ، و علاقته

بالدنيا و الآخرة ، وتعين له قيمة كل منهما بالتقدير الصحيح ، فكانت أمة الجهاد و التضحية و الايمان و الصدق والعقيدة السليمة والفكرة المستقيمة (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله ، ثم لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون) .

ثم إن أمتنا الاسلامية أثرت فيها عوامل الزمان و تسرب إليها الضعف فأضحت صلتها واهنة بمصدر قوتها وعزها ، وجعلت تتطلع إلى أمم وشعوب ذات حضارات ونظرات مادية ، وبقدر ما سرى إليها الوهن ارتفع شأن المظاهر والظواهر الحضارية فى عينها ، و نالت مكانة وجيهة لديها ، فنجحت مكايد أعدائها فيها ، و أسفرت تطلعات الشعوب و الأمم المادية بتحويلها إلى أمة خاملة يائسة عن مستقبلها ، سيئة الظن بتاريخها المشرق ، واثقة بأن مسايرة الركب الحضارى لا تتم إلا بالاعتماد على الوسائل الجديدة ، و الاعتراف بغناها فى شئون الحياة .

و لعل تصور المسلمين إلى هـذا المدى فى الاعتماد على الوسائل الجديدة و الاعتراف بغناها لم يضرهم لولا أن ضعف الثقة بشريعة الاسلام ومنهجه للحياة قد تمكن من نفوسهم ، و زعزع عقيدتهم بخلود رسالة الاسلام و شمولها ، تلك العقيدة التى هى مصدر القوة والعز والسمو لهم ، ومنبع الفضائل و الصمود أمام الاغراءات و الطاقات المادية ، و المدخرات الكونية الزائفة .

لقد وقعت الأمة الاسلامية فريسة الاتباع لأفكار و أراء الأمم الضالة و فلسفاتها الزائفة - سواء بالشعور أم من غير شعور - و بدأت تنظر إليها بنظرة ملؤها الغبطة و الاعجاب ، وتنظر إلى مناهجها و أوضاعها وتتلقى من نظمها و أساليب حياتها ما تراه صالحاً لعلاج الداء و إصلاح الأوضاع ، على أن ذلك ليس إلا علامة هزيمة نفسية ، وشعور بالنقص فى كل ما تنتمى إليه من عقيدة ونظام وشريعة

ونتيجة لهذا الشعور بالنقص والرؤية الفجة نحو المنهج الاسلامى للحياة تخلت أمة الاسلام عن دورها القيادى العظيم ، دور الهداية و الدعوة إلى الايمان بالله و رسوله والعمل الصالح ،الواقع الذى يرفع صاحبه إلى قمة العز والسعادة والتمكين و العلو و الخلافة و الأمن و الهدوء ، ولقد وعد الله سبحانه المؤمنين من عباده بالاستخلاف و التمكين و تبديل خوفهم بالأمن و السلامـــة ما كانوا متمكسين بالايمـان و العمل الصالح ، و توحيد الله تعالى و طاعته فى كل صغير و كبير ، ودقيق وجليل «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » .

إن جماعات من أهل الديانات و الكتب السماوية السابقة لحريصة على رد المسلمين إلى جاهلية وكفر وصرفهم عن دينهم ،وهى باذلة فى سبيل هذه الغاية كل رخيص وغال ، مستخدمة فيهـا كل نوع من الاغراءات و الوسائل الخلابة ، مما يكفى لسلخهم عن دينهم ، فهل نفهم نحن المسلمين هذه المحاولات الخطيرة و نشعر بالخطر على معتقداتنا و شريعتنا أم لا نزال مطبقين أعيننا عن رؤية الواقع ، وما ينصب حولنا من حبائل مزخرفة .

يقول الله تبارك و تعالى محذراً إيانا من إطـاعة فريق من أهل الكتـاب الذين لا يدخرون وسعاً فى ردنا إلى ما يسمى بالكفر .

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) ؟

سعيد الأعظمى

التوجيه الإسلامي

الوحدة العقائدية الحضارية العالمية

سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

تلك الوحدة العالمية التى لم يشهد التاريخ مثلها فى السعة والعمق و المتانة فى أدوار الحضارة البشرية و المجتمع الانسانى المختلفة ، و هى التى قامت - و لا تزال قائمة - على أساس وحدة العقيدة - وهى عقيدة التوحيد ، و الايمان بنبوة محمد ﷺ ، والحياة بعد الموت - و وحدة النظرة إلى الظواهر الكونية و القدرة الالهية وتعليلها وتقييم ماهية الأشياء وقيمتها على أساس الايمان بالله و غاية الخلق و التكوين وكون هذه الحياة محدودة عارضة ، و الايمان بالقيم و المثل التى دعا إليها الاسلام ، و مثلها أسوة الرسول - ﷺ - وحياة الصحابة والجيل المثالى الأول ، على تفاوت وتنوع فى التمسك بها ، و استقامة عليها ، تنوع تقضيه الفطرة الانسانية ، و اختلاف العصر و البيئة و التربية ، و المؤثرات الخارجية ، و لكن القدر المشترك بين المجتمعات الاسلامية فى كل عصر بعد ظهور الاسلام ، أبرز شكلا و أكبر حجماً و أعمق جذوراً من كل قدر مشترك بين أجزاء أمة واحدة و أتباع ديانة واحدة .

ثم الوحدة الحضارية - إلى حد بعيد - على أساس الأحكام الشرعية والتعاليم الخلقيـة – على اختلاف فى المستويات ومدى العمل بهذه الأحكام و التعاليم - اختلاف لا مفر منه مع اختلاف طبائع الشعوب التى دانت بالاسلام وطبائع البلاد و العصور ونظم الحكم - و لكنها حضارة تمتاز بالطابع الاسلامى الخاص ، فهى حضارة تتميز فى العقيدة بالتوحيد ، و فى الاجتماع باحترام الانسانية والمساواة بين أفرادها ، و فى دائرة الأخلاق و المنهج بتقوى الله - إذا قورنت بالحضارات

الأخرى - و الحياء و التواضع ، و فى ميدان الكفاح بالسعى للآخرة و الجهاد لله ، و فى الحياة الفردية و المنزلية بالعناية البارزة بـ « الطهارة » - و هى أخص من « النظافة » التى تلتقى عليها الحضارات الراقية والمجتمعات السليمة ، و الذبح والتزكية فى لحوم الحيوانات و الطيور .

وأسماء المسلمين فى مختلف البلاد - على تباعدها وتباينها فى اللغات والثقافات - متميزة دائماً ، عربية غالباً ، مستعارة من أسماء الأنبياء و الصحابة ، و أهل البيت و الصالحين من السلف ، يتجلى فيها عقيدة التوحيد أو مفهوم العبودية والحمد وتكثر التسمية بمحمد و أحمد حباً وتيمناً .

سمات الوحدة البارزة :

وتتجلى هذه الوحدة الدينية و الحضارية فى وحدة الفرائض و الواجبات وعدد من الشعائر الدينية و المناسبات الاجتماعية ، فتقام الصلوات الخمس فى أوقاتها (على توقيت البلاد المختلفة) وتصلى الصلوات جماعة بركعات معينة فى الجوامع و المساجد ، و يستطيع كل مسلم من أى بلد كان ، و بأى لغة يتكلم ، أن يحضر هذه الصلوات أو يؤم الجماعة (إذا أراد المصلون) من غير أن يستعين بدليل و تعليمات محلية ، وصلاة الجمعة تقام باهتمام بارز ، و القرآن هو الكتاب السماوى الفريد الذى يتلى و يحفظ و يرتل فى كل الأمصار و الأعصار (١) ، و الأذان يدوى من جميع المساجد بصيغة واحدة ، و رمضان هو شهر الصوم فى كل العالم الاسلامى مهما اختلفت الفصول والطقس و المناخات ، ويحتفل المسلمون

(١) اعترف الموسوعة البريطانية Encyclobeadla Britanica بأن القرآن « هو أوسع الكتب تلاوة على وجه الأرض » (راجع دائرة المعارف البريطانية مادة) Mohammad .

بالعيدين عيد الفطر و عيد الأضحى ، و يصلون ركعتين شكراً لله تعالى ، بعدهما الخطبة يحضرهما المسلمون على اختلاف طبقاتهم و مستوياتهم ، ويؤم الناس مكة للحج من كل صوب بعيد وفج عميق ،وذلك من غير انقطاع فى التاريخ الاسلامى الطويل ،و من غير خضوع للتقلبات السياسية ،والتطورات الاقتصادية والاجتماعية ، وتحية المسلمين فى كل بلد سلام (و هو السلام عليكم) و كل ذلك طراز من الوحدة لا يوجد له مثيل فى الأمم و الديانات و المجتمعات .

و قد شعر بهذه الوحدة الفريدة ونوه بها عدد من فضلاء الغرب ، و أصحاب الفكر و الأقلام ، نكتفى هنا بشهادتين :

يقول هملتن جب :

« إن الاسلام تصور منسق ظهر فى أشكال سياسية و اجتماعية ، و وحدة دينية ، و هذا التصور يحيط بمساحة واسعة للزمان و المكان ، و قد برزت خصائصه المختلفة فى مناطق وعهود مختلفة بقدر احتكاكه بمختلف القوى الاجتماعية و السياسية المحلية ، فمثلا كانت أسبانيا فى شمال غربى أفريقيا فى العهود الوسطى مرتبطة بمهد الاسلام فى غرب آسيا ، و كانت ثقافتها جزءاً من ثقافة هذا المركز الاسلامى ، ولكنها كانت تتميز فى مجالات مختلفة وتحمل خصائص كان لها بدورها الأثر البالغ على غرب آسيا ، كذلك كانت المناطق الرئيسية الأخرى المكتفية بذاتها كشبه القارة الهندية ، و اندونيسيا ، و المناطق الصحراوية فى جنوب روسيا إلى حدود الصين تحمل خصائص و مزايا اقليمية ، لكنها كانت تحتفظ بالطابع الاسلامى المميز » (١) .

و يقول ولفرد كانتويل اسمث : :

(1) Hamilton A. R. Gibb, Studies of Civilization of Islam, London, 1960, p. 3,

« كان انتصار المسلمين انتصاراً داخلياً لدينهم ، فانهم لم يحققوا النصر فى ميدان القتال وحده ، و لم يؤثروا على جوانب مختلفة فى الحياة فحسب ، بل إنهم حققوا النصر فى توجيه الحياة بصورة عامة توجيها جديداً ، وطبعها بطابع خاص ، وهو ما يعرف بالحضارة ، وقد ساهمت فى تكوين هذه الحضارة الاسلامية عوامل متعددة ، كالعربية و اليونانية ، و الحضارة السامية للشرق الأوسط ، و إيران الساسانية ، و العناصر الهندية ، و لكن تجلت عبقرية المسلمين فى تنسيق هذه العوامل المختلفة و صهرها فى بوتقة جديدة و إخضاعها لمنهج متجانس للحياة ، بدون أن تفقد هذه العوامل خصائصها الذاتية ، و على العكس فانها تطورت تطوراً مطرداً ، كان ذلك هو الاسلام الذى قام بتنمية هذه العوامل و إكمالها ، و هيأها قوة للبقاء ، إنه منح كل جانب من جوانب الحياة طابعاً إسلامياً مهما كان أصله و عناصره التركيبية ، وهيأ المنهج الاسلامى للحياة و المجتمع وحدة وقوة ، و كان للقانون الاسلامى دور جوهرى فى تكوين هذه القوة الموحدة ، و هو الذى قام بتنسيق جميع شعب الحياة من العبادة إلى الملكية و الحكم بتياره الجارف المعين ، فان القانون الاسلامى كان قوة موحدة تربط المجتمع الاسلامى وحدة ، وجعل سائر أعمال الحياة مجدية وهادفة بطبعها بالطابع السماوى ، ومنح الزمان وحدة يجعل المجتمع نامياً ممتداً ، فقد كان الملوك و السلاطين يتناوبون وتقوم حكومات وتسقط حكومات لكن دورها فى توجيه الحياة الاجتماعية فى الأرض حسب التعاليم الربانية كان هامشياً و جانبياً » (١) .

إنها حضارة عجنت مع اسم الله و مراقبته وصبغت بصبغة الله ، وقامت على أساس الايمان ، فلا يمكن تجريدها عن الطابع الدينى و اللون الربانى و الروح

(1) Welfred Cantwell Smith : Islam in Modern History, New York, 1957, pp , 36 — 37,

الايمانى ، وكل ما عارض ذلك من عصبية قومية وحمية جاهلية ، وحرب عنصرية و نهامة مادية ، و استهتار خلقى أو فوضوية اجتماعية ، فهو شئ طارىء عليها ، وافد أو مستورد من الخارج ، أو من رواسب البيئات و المجتمعات التى انتقل منها العنصر الاسلامى ،أو بسبب ضعف الثقافة الاسلامية وقلة الاشتغال بالقرآن الكريم و الحديث النبوى الشريف ، ومصادر الاسلام الأصيلة الأولى ، فى هذه البلاد .

سر نجاح الجهود الاصلاحية والتجديدية فى تاريخ الاسلام :

و لذلك استمرت جهود الاصلاح و التجديد و محاربة الفساد و البدع و آثار الجاهلية فى تاريخ الشعوب و البلاد الاسلامية استمراراً لم يعرف مثيلها فى تاريخ الأمم و الديانات غير الاسلامية ، و كتب لها من النجاح و الانتصار ما لم يعرف لمحاولات الاصلاح و التقويم فى تاريخ أمم و ديانات أخرى (١) .

و ذلك لمطابقة هذه الجهود لجوهر هذه الأمة وروحها و نفسيتها ، و تعبيرها عن الأسس والمبادىء التى قام عليها كيان هذه الأمة و انبثق عنها تاريخها وامتدادها .

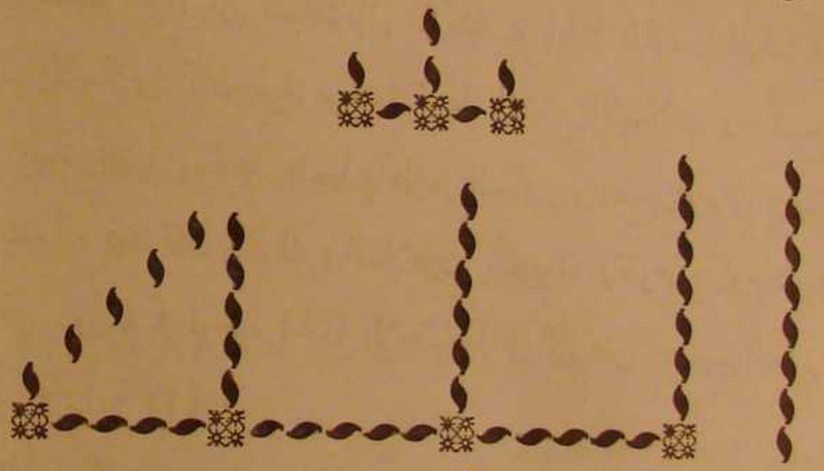

(١) راجع مقدمة الجزء الأول من سلسلة كتاب « رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام » ، و اقرأ أمثلة هذا النجاح فى أجزائها الأربعة .

معالم الاتجاه الحضارى الاسلامى فى تفسير التاريخ

دكتور عبد الحليم عويس

إن صلة المسلمين بالبحث التاريخى صلة قديمة ترجع إلى المصدر الاسلامى الأول ، و هو القرآن الكريم . . . و للاسف فعلى الرغم من الاهتمام القرآنى الكبير بالتاريخ و الحضارة و تقديمه لسنن الله الاجتماعية فى قيام الأمم و هبوطها عبر قصص الأمم البائدة فان المسلمين لم يقفوا عند التفسير الحضارى للقرآن مثلما وقفوا عند الجوانب التشريعية و البيانية و اللغوية فى هذا الكتاب العظيم .

وخلال القرون الأخيرة التى انفرط فيها عقد المسلمين وظهر العالم الاسلامى — لأول مرة فى تاريخــه — متخلفاً بيقين أمام حضارة زاحفة مدرعة — فان الضمير الاسلامى بدأ ينظر بقلق إلى ما وصل إليه المسلمون ، ويبحث — بلهفة — عن أسباب هذا التخلف الغريب . . . فان الأمر ليس مجرد هزيمة عسكرية يستطيع أن يجمع لها الجموع ، و إنما هو تخلف حضارى و شرح أساسى فى البناء ، و فى مواجهة هذا الموقف الصعب اختلف المسلمون فى الرؤية ، و قدموا عدداً هائلا من العناصر التى أطلق عليها (أسباب تخلف المسلمين) - أو - (وسائل تقدم المسلمين) - لكن - لم يظهر إلا أخيراً - ذلك المنهج التحليلى الذى يعالج قضية التحضر برؤية شاملة ، و يتجاوز مجرد الحصر لعدد من الأسباب ، ويقتحم مجال التنظير برؤية إسلامية تستوعب أصول الفكر الاسلامى و حقائق التجربة التاريخية الاسلامية ، و هذا الاتجاه من بين عدد من الاتجاهات - هو الاتجاه الذى يمكن

أن نقول : إنه (الاتجاه الحضارى الاسلامى) أو (التفسير الاسلامى للتاريخ) . . .
وهو بيت القصيد فى بحثنا هذا . . .

إن هذا الاتجاه - باجمال - يؤمن بأهمية دور الأمة الاسلامية وفض كل محاولات التيئيس أو التغريب أو التوقف ، و يؤمن بقدرة الأمة — مهما تكاتفت المشكلات - على العطاء، وبقدرتها على استئناف دورها فى التاريخ ، وهو يثق فى أصول هذه الحضارة ، و يتجاوز مرحلة الانبهار و التلفيق ، و لا يرى فى الحضارة الأوربية الشوط الأخير فى رحلة الحضارة ، بل يرى أن فى هذه الحضارة صنوفاً قاتلة من الخلل ، و إن كان لا يؤمن بالتزام السكونية أو القدرية أو الحتمية ، حتى تتداعى آلياً هذه الحضارة . . . لأنه مطالب بالبديل و بالعمل - ليس لاسقاط الحضارة الغربية - فهذه ليست قضيته ، بل لتقديم حضارة بديلة تتناغم مع الصياغة الاسلامية للحياة . . . .

و يرى هذا الاتجاه أن ضعف المسلمين و تفرقهم هما أكبر خدمة يقدمها المسلمون لأعدائهم ، و أن كل صور الغزو الخارجية السياسية و الاقتصادية و العسكرية مرجعها إلى خلل فى البناء الداخلى للامة الاسلامية نشأ من الانفصام النكد الذى وقع بين حياة المسلمين وبين شريعتهم و أصولهم الحضارية .

- ويفرق هذا الاتجاه بين مصطلحى (التحديث) الذى هو امتلاك كل الأساليب الصحيحة النافعة لدى الخصم الحضارى وبين (التغريب) الذى هو استسلام للغرب . . . فالتحديث علاقة تفاعل بين حضارتين ، و التغريب تبعية المغلوب للغالب . .

ويرى هذا الفريق أن (الحضارة تحد) و أنه لا يمكن أن تستورد الحضارة أو تشترى ، فهى معاناة ورقى متدرجان ، وليست الحضارة هى الآلات أو المنجزات

المادية ، بل الحضارة مركب مكون من العقيدة والفكر والانسان والتراب والوقت . . . و حصاد هذا المركب من نظم و مناهج و ماديات هو ثمرة الحضارة . . فالسبب فى الابداع الحضارى هو (المركب) ، و أما (الحصاد) أو المخترعات فهى النتيجة دون أسبابها أو مؤهلاتها .

- ويرى الاتجاه الاسلامى - أيضاً - أن ثمة (حتمية) فى التاريخ هى (السنن الكونية الالهية) لكن هذه الحتمية لا تكبل حركة الانسان الفرد ، و لا تكبل حركة الأمة إن هى قررت السير فى طريق الحضارة ، فالقدرية الاستسلامية لا تحسب على هذا الاتجاه الايجابى الحركى ، وإنما تحسب على الانعزاليين السكونيين من أصحاب النزعات الوجدانية و الباطنية ، كما أن هذه الحتمية ليست من باب الحتمية الماركسية التى تجعل التاريخ كتلة لاواعية تتحرك قدما بطريقة آلية ، وليس لادارة الفرد أو الأمة دور فيها . . . .

ويرفض هذا الاتجاه الدورة الطبيعية للحضارة التى يقول بها العلامة ابن خلدون فابن خلدون كان يعالج الدول - لا الحضارات - فى نظريته . . . و نظريته ذات صلة وثيقة بالحتمية التى يرفضها النظر الاسلامى . . . ! !

- و الحضارة الاسلامية قادرة بعون الله - على الافلات من حصار الموت ، و على البروز فى مواقع أخرى أكثر قدرة على حمل رايتها و التعبير عن فطرتها و مبادئها لأنها (الحق) الذى يجب أن يبقى فى مواجهة (الباطل) . . .

- ويرى هذا الاتجاه أن خط الأنبياء و المرسلين هو خط الحق و الاسلام فى التاريخ كله ، و القوى المحاربة لهم هى خط الباطل . . . ولا صراع فى الحياة إلا بين الحق والباطل . . . و أما القوى الأخرى فبينها تعاون وتكامل و استشارة وليس صراعاً . . . لا صراع بين الطبقات و لا بين الملاك و العمال ، ولا بين

الرجال و النساء ، و لا بين الأجيال ، ولا بين الفرد و المجتمع . . . و لا بين الانسان و الطبيعة ، بل هو تكامل حتمى ، حتى ولو لبس ثوب استشارة وتنافس مشروعين . . . فهو صراع واحد بين قوى الخير والشر فى الكون والحياة . . .

- و يؤمن النظر الاسلامى للتاريخ بدور القيادة و البطولة و الأقلية المبدعة ، إذ ليس فى الامكان أن يكون كل الناس عمر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبى ، و فى الوقت نفسه لن تستطيع الجموع أن تسير فى طريقها الصحيح إلا بالقيادة الواعية المفكرة المبدعة . . . وهل يمكن أن يكون تاريخنا متألقا و عظيماً دون نجومه المعروفة أبى بكر و عمر و عثمان وعلى و خالد وسعد بن أبى وقاص و أبى عبيدة و القعقاع و عمرو بن العاص وعقبة بن نافع و عشرات غيرهم ، و إذا وسد الأمر إلى غير أهله من الرعاع و الغوغاء فالمصير هو التردى و الهزيمة . . . كما أن الأقلية المبدعة ليست أقلية انعزالية مستعلية بل هى من الأمة و للامة ، و قد صنعتها الأمة على عينها و بعرقها . . . و عليها - بالتالى - مسئولية تجاهها . . . و مسئولية أمام الله الذى سيحاسبها على دورها الذى هيأها له ، و وفر لها وسائله .

- و العرب مادة الاسلام . . . وهم ملائكته وأروع أجناسه و أنقاها إذا حملوا راية الاسلام باخلاص ، لكنهم أحط الأجناس الاسلامية عندما يخونون هذا الدين و يتنكرون له . . . فهم إما ملائكة بالاسلام و إما جنس غرائزى بغير الاسلام . . . . ولا طريق لهم فى التاريخ إلا هذا و ذاك .!

ولم ينتشر الاسلام بذاته . . . بل انتشر بسواعد مخلصة وقلوب نقية وعقول ذكية وهمم عالية . . . فالتاريخ الاسلامى صنعه رجال فاعلون ، ولم يصنعه سكونيون هامدون خرافيون . . . وقد عانى صانعو هذا التاريخ مثلما يعانى كل البشر و زلزلوا زلزالا شديداً و صبروا على ما امتحنوا به ، و كانت العاقبة - بعد الابتلاء و الاختبار - للمتقين . . .

- و حضارة الاسلام حضارة دعوة حملها التجار و العباد و الزهاد ، وليس العنف سبيل الاسلام إلا عندما توصد كل الأبواب . . . ولدورة التاريخ الاسلامى منظومة خاصة لا علاقة لها بالمنظومة الأوربية ، ولا يجوز أن تقاس عليها ، فبينما كان التاريخ الأوربى يمر بأحلك فتراته بعد ضياع حضارتيه اليونانية و الرومانية كان التاريخ الاسلامى يبدو ألق الانسانية و شمسها التى توشك أن تعم العالم كله .

و بايجاز تلك بعض مرئيات الاتجاه الاسلامى المعاصر نحو التاريخ ، و هى مجرد بذور فى طريق تكوين رؤية إسلامية أصيلة للتاريخ .

لكن الأهم - من هذه البذور - و الأعمق هو التطور الذى وقع فى طريقين : طريق التنظير ، و طريق منهج البحث . . .

التطور فى التنظير :

فى البداية ، وقبل مرحلة التنظير للعضلة الحضارية بمنهجية علمية تستفيد من تطور فلسفة التاريخ فى العالم ، كانت الدراسات تتجه مباشرة إلى الاجابة على التساؤلات الخاصة لسر تخلف الأمة الاسلامية وتقدم أوربا - كما ذكرنا من قبل - و فى هذه المرحلة ظهر كثيرون على رأسهم مدرسة جمال الدين الأفغانى و المجاهدان الكبيران شكيب أرسلان و عبد الرحمن الكواكبى ! !

وقد قدم هذان المجاهدان من خلال نظراتهما الثاقبة عدداً من الأسباب . . .

فقد رأى الكواكبى أن عوامل ضعف المسلمين تتلخص فى جهلهم ولا سيما الأمراء منهم ، و فى ظهور الحكومات المستبدة و حرمان الشعوب من الحرية و تعطيل شريعة الله و إهمال الدين و انحلال رابطته و تشويهه بواسطة العلماء المدلسين والمؤولين والاقتصار عن العلوم الدينية وإهمال العلوم الطبيعية والرياضية ، والفقر ، و تبذل الأمراء وميلهم إلى المنافقين و علماء السوء . . .

أما العلامة شكيب أرسلان فقد رأى أن أهم عوامل تأخر المسلمين هى ، ترك المسلمين عزائم القرآن التى قام بها سلفهم ، و إعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية و فقدهم القوة المادية ، و الاكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة و اللهو بالقشور عن اللباب ، و اليأس من رحمة الله و فقدان الثقة فى النفس و استخذاء المسلمين أمام الأوربيين ، وفقد أكثرهم عزة الاسلام القومية ، ومواطأة المسلمين للاوربيين على إخوانهم و خدمتهم إياهم ، وفقد روح التضحية التى سادت بها الأمم الأوربية ، وعدم اقتداء المسلمين بالأوربيين فى تأليف الجمعيات والشركات ، وفساد الأخلاق عامة و أخلاق الأمراء خاصة ، و فساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات ، و تفوق الأوربيين فى العدة و طمعهم فى بلاد الاسلام ، و ثباتهم و صبرهم وسيرهم على خطط مرسومة يتتبعونها منذ مئات السنين ، وتخيم الجهل على الأمم الاسلامية ، و عدم تجدد برنامج التعليم و استيلاء الجمود على الفقراء ، وكثرة الكلام عن الآخرة مع أن الاسلام دين ودنيا وآخرة ، والدعايات الاستعمارية التبشيرية .

بيد أن تطور العقل المسلم فى التنظير للمعضلة الحضارية قد مكنه من تقديم تصور لعملية التطور الحضارى بطريقة منهجية وشمولية . . . فليس الأمر فى البناء الحضارى مجرد علاج لبعض الأمراض . . . فالقضية تتصل بالكيان الحضارى كله و بروحه الهامدة و بارادته الخامدة . . . و علاج الروح عمل معقد يحتاج إلى توجيه فكرى ونفسى و جمالى و إلى إعادة ارتباط المسلم بالسنن الكونية من خلال عقيدة حضارية قادرة . . . حتى يعرف المسلم موقعه فى الكون و رسالته نحو الانسانية .

و فى هذا الاطار كان لمالك بن نبى - على المستوى التنظيرى - فضل كبير ،

و كان للمجاهدين الذين ظهروا فى القرن الرابع عشر على المستوى التطبيقى - فضل كبير أيضاً . . .

و من خلال هذا النمو النظرى و العملى بدأت الكتابة التاريخية من منظور إسلامى تصل إلى مرحلة طيبة من الرشد . . . فالاضافة إلى سلسلة مالك بن نبى (مشكلات الحضارة) و التى تضم (شروط النهضة ، و آفاق جزائرية ، و فى مهب المعركة ، والمسلم فى عالم الاقتصاد ، و الظاهرة القرآنية) وغيرها . . . بدأت تظهر كتابات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ، فى منهج الحضارة الانسانية وحوار حول مشكلات حضارية ، وكتابات الدكتور « عماد الدين خليل » حول (التفسير الاسلامى للتاريخ) و كتابات الأستاذ « محمد جلال كشك » حول (الغزو الفكرى) و القومية و الغزو الفكرى ، و الماركسية و الغزو الفكرى ، و دخلت الخيل الأزهر ، كما ظهرت دراسات الدكتور « محمود محمد سفر » تحت عناوين (الحضارة تحد و إنتاجية مجتمع ، و الاعلام موقف ، والتنمية قضية) . . . وظهرت بحوث الدكتور « عون الشريف قاسم » حول (قضايا البعث الحضارى) وظهر بحث الدكتور « عثمان موافى » بعنوان (منهج النقد التاريخى الاسلامى و المنهج الأوربى) و بحوث الدكتور « عفت الشرقاوى » حول (أدب التاريخ عند العرب) و الدكتور « محمد فؤاد حجازى » حول (البناء الاجتماعى ، والتغيير الاجتماعى) و بحوث العلامة الدكتور « عمر فروخ » فى التاريخ الاسلامى وتفسير التاريخ ، وبحوث الأستاذ « جودت سعيد » تحت عناوين (حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وفقدان التوازن الاجتماعى ، و الانسان عندما يكون كلا وحين يكون عدلا) . . . و بحوث كاتب هذه السطور حول (تفسير التاريخ) . . . كعلم إسلامى و (دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية) . . .

و هكذا - و بدون استطراد لا يتسع له المقام - بدأ العقل المسلم يعالج عالم السنن التاريخية و الاجتماعية ، حتى يكتشف من خلال تعرفه عليها التفسير الصحيح للازمة الحضارية التى تمر بها الأمة ، والطريق لعبور هذه الأزمة ، وكان هذا - فى حد ذاته خطوة طيبة للقفز بالمنهج التاريخى ودفعه ليلتحم بفلسفة التاريخ التى هى جزء لا يتجزأ من المنهج التاريخى السليم .

و لم يقف الانجاز - فى النظرة الاسلامية للتاريخ - عند هذا الأفق - مع سموه - بل إن ثمة انجازات تمت على مستوى الكتابة التاريخية المباشرة . . .

لقد تهاوت فى العقل المسلم كل محاولات الانتقاص من شخصية الرسول ﷺ ، و من خلفائه الراشدين، و أكدت مئات البحوث الاسلامية و غير الاسلامية أن محمداً هو الأول فى التاريخ ، وأن كل ما ظن أنه شهادة ضده هو شهادة له . . . فحتى تعدد زوجاته كان شهادة له من تسع زوجات يطلعن منه على كل صغيرة و كبيرة - و يستحيل تواطؤهن على الكذب و قد عاش بعضهن بعده نحو نصف قرن و حرمن من الرجال بسببه ورضين بذلك .

و مع ذلك ظللن يعترفن بعظمته و يؤمن بنبوته ولم يتغير رأيهن فيه قط مع أن كل العظماء - كما يقال - يفقدون عظمتهم فى بيوتهم مع الزوجة الواحدة إلا محمداً الذى بقى عظيما مع تسع زوجات ! !

- وقد ظفر العصر الراشدى بتقدير كبير وتألقت عظمة أبى بكر و عمر . . . و حتى خلاف الصحابة فيما بينهم وصل النظر السليم إلى أنه خلاف فى سبيل الحق . . . المصيب منهم والمخطئ كان يبحث عنه . . . وقد دعمت أبحاث العلامة محب الدين الخطيب و الدكتور محمد الصادق عرجون هذا الاتجاه الحميد . . . .

- ولئن كان الصحابة بشراً على أعلى طراز من البشرية الزكية المخلصة - على

الرغم من وجود خلافات اجتهادية بينهم - فان النظرة إلى الدولة الأموية و العباسية - من باب أولى - يجب أن تكون منصفة ، فتسجل لهم الايجابيات ، وتسجل السلبيات ، وسوف نجد أن دولة بنى أمية - مع وجود أخطاء بالطبع - قد قدمت خيراً كثيراً للاسلام ، و كانت - بحق - دولة الفتوحات العظيمة - كما أن دولة بنى العباس قد نجحت فى استيعاب الانفتاح الحضارى ، و أبرزت الألق الفكرى الاسلامى فى وجه التيارات الزاحفة من الحضارات المنهزمة . . و وقفت فى وجه حضارات شعوبيـــة و إلحادية كثيرة . . . و هذا لا يعنى عدم وجود أخطاء فيها ! !

- وقد أنصف الأيوبيون أبطال حطين . . . .

- و أنصف المماليك أقطاب عين جالوت . . .

- و وضعت أصول نظرة علمية للتاريخ العثمانى أظهرت فضله على المسلمين فى وجه الغارة الصليبية التى كادت تبتلع المغرب والمشرق بعد قضائها على الأندلس ، لولا ظهور القوة العثمانية الاسلامية الفتية .

و مع كل العبث و التضليل الذى وقع فى التاريخ الحديث فقد نجحت الرؤية الاسلامية للتاريخ فى كشف الحركات المعادية التى تلبس شعارات القومية و الشعوبية و الالحادية و الماسونية المستترة و التقدمية و الوطنيـــة . . . و كانت - ولا زالت - عائقاً - دون وحدة العرب و تقدمهم .

- و قد أبرز المنهج التاريخى الاسلامى الدور الأساسى للاسلام فى تحرير الشعوب الاسلامية ، و لا سيما فى الثورات التحريرية الكبرى كثورة الجزائر ، و وقوف ليبيا ضد الاحتلال الايطالى ، و وقوف الأزهر ضد الحملة الفرنسيـــة وضد مظالم الولاة ، و ثورات أندونيسيا ومسلمى الهند ، و دور الأزهر و الزيتونة

والقرويين - أعادهما الله للاسلام - والمعاهد الاسلامية ، فى الوعى الاسلامى بعامة .

ب - تطور فى مناهج البحث :

- وقد بدأ تطبيق عملى فى الكتابة التاريخية لذلك المنهج الذى كان يحلم به ابن خلدون - فأصبح التاريخ مصحوباً بلون من التفسير والنقد الداخلى والانسجام العقلى ، و قد نقد المؤرخ المتحيز و المتملق و الجاهل ، ورفضت الثقة المطلقة فى الناقلين عن طريق الجرح و التعديل ، ومع التحام تفسير التاريخ بالعملية التاريخية البحتة ظهر تقدير المؤرخين لما سماه ابن خلدون (طبائع العمران) .

وقد نظر بعين الشك إلى الحشو المغلوط الذى يراد جعله تاريخاً ، و المتمثل فى عدد من الموسوعات الأدبية مثل كتاب (الأغانى) لأبى الفرج الأصفهانى ، و مثل قلائد العقيان ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان و العقد الفريد لابن عبد ربه . . . . فهى مصادر يؤخـذ منها و يترك ، و أكثرها منحول لا يصور حياتنا الاجتماعية .

و فى العصر الحديث ظهرت أدوار ساطع الحصرى ، و جورجى زيدان وبقية مدرسة المستغربين ، كما كشفت مدرسة المستشرقين و المدرسة الماركسية فى العبث بتاريخنا و تحريفه لخدمة الأغراض المحددة .

و يكاد ينتهى التطور فى المنهج التاريخى من وجهة نظر إسلامية إلى عدد من المسلمات التى تمثل إضافة جديدة أهمها :-

١- الارتباط بين العمل التاريخى الوثائقى والعمل التفسيرى الداخلى فى فقه التاريخ.

٢- تقويم المصادر على أساس الافادة من منهج المحدثين فى الجرح والتعديل واعتماد القرآن و السنة (المصدرين الأساسيين) للتاريخ الاسلامى و التاريخ العام.

٣- ضرورة أن يجمع المؤرخ بين وظائف ثلاث (مؤرخ ، ومحدث ، ومفسر) .

٤- الشمولية فى النظر التاريخى بين شتى العوامل المؤثرة فى الحركة التاريخية من فكر و اقتصاد وحياة اجتماعية و عقيدية وسياسية و عسكرية ، فليس بالسياسة وحدها تصنع الحياة ، بل كان للعلماء و الصناع و الزراع و التجار دور أهم فى صناعة التيار الحضارى .

٥- ضرورة توافر أدوات البحث التاريخى فى المؤرخ المسلم من عدالة وضبط و موضوعية وفقه باللغة و العلوم الانسانية و الجغرافيا الاسلامية عبر القرون ويمتنع الحكم إلا من خلال علم مؤكد .

٦- رصد الغايات العليا الاسلامية وتأثير مبادىء الاسلام فى التاريخ والحضارة الانسانية .

٧- النظر إلى التاريخ الاسلامى كله على أنه تاريخ كل مسلم ، ورفض النظرة الشعوبية للتاريخ ، فتاريخ الهند و أفغانستان و الأندلس و المغرب و مصر والشام والجزيرة العربية وأندونيسيا وبقية أقطار العالم الاسلامى وحدة لا تتجزأ .

وبايجاز . . . لقد حقق الاتجاه الاسلامى تطوراً فى الرؤية، و فى المنهج والتحم بآفاق الماضى و آفاق الحاضر ، وقـدم دراسات نقدية جيدة و أطروحات موفقة اتكأت على منهجيـة سليمة ، بل كان الاتجاه الاسلامى أسبق فى التنظير الفلسفى للحركة التاريخية على مستوى العالم الاسلامى .

بيد أن الخطوات مع كل ذلك فى طريق كتابة شاملة للتاريخ الاسلامى بمنهج إسلامى رصين تمضى بطيئة و بجهود فردية و ما زال التاريخ الاسلامى يتعرض لغارة شرسة من أعداء الاسلام وخصوم حضارته .

و لم يجد الاتجاه الاسلامى الامكانات لكن يقدم موسوعات تدحض ذاك العرض السىء المليء بالسموم الذى تزخر به الموسوعات التاريخية الاستشراقية و دوائر المصارف الغربية و التفسيرات الماركسية لتاريخنا - فضلا عن أن بعض الكتابات التاريخية المخلصة تمتاز بالجمع التقليدى للوقائع ، و بافتقارها إلى عنصر النقد العلمى و اعتمادها على العاطفة و الأفكار الشائعة .

- ولعل المنهج التاريخى الاسلامى يتجاوز هذه الأخطاء التى يقع فيها بعض المحسوبين عليه فى وقت قريب باذن الله .

الطريقة الصوفية و العلمنة

الدكتو السيد فهمى الشناوى

لقد دعا جمال الأفغانى إلى الرابطة الاسلامية السياسية وهو فى هذا قد سبق التيار الحديث المعاصر الذى انتهج « الاسلام السياسى » كأسلوب إحياء ، و هو الأسلوب الذى توليه الدوائر الغربية السياسية و الاستشراقية كل اهتمامها حالياً وتتوقع بروز هذا الاتجاه فى الساحة الدولية ، ومن ثم يمكننا أن نتابع تأثير دعوة الأفغانى هذه فى واقعنا المعاصر .

وقد دعا محمد عبده إلى الاحياء الاسلامى عن طريق تغيير التعليم ، وهو يرى أن التعليم لا السياسة هى الأبعد مدى والأبقى على الزعم ، و الأعصى على ضرب الخصوم لها ، وكانت فلسفته المتحدثة هى التلاقى والتوفيق بين التعليم الدينى التقليدى والتعليم الأوربى الحديث ، وقد وصل هو إلى هذا التصور بعد أن اشترك سياسياً فى الثورة العرابية و رأى البلد تتحطم و المستعمر يدخل بخيله و رجله ، و قد قوبلت دعوته التى انتهجت التعليم سبيلا إلى التغيير بترحيب من المستعمر ذاته أكثر مما قوبلت من أهل وطنه ، اعتبرها الانجليز خطوة وسط و نقطة تلاق و تفاهم بعيداً عن السلاح ، ومن ثم أكبروا الرجل و دعوه إلى البرلمان فى « دستمنستر » و أخذوا له صورة تذكارية هناك ، وكان هذا فى الواقع هو بدء أسلوب التفاوض السياسى وهو الذى انتهجه الوفد و ثوار ١٩م و البرجوازية المصرية عموماً ، و قد خلق هذا الأسلوب « المعقول » فرصة لتفهم الطرفين ما لدى الآخر من مزايا سياسية

و اجتماعية و عقائديه ، و ظل هو أسلوب التعامل السياسى فى كل الوطن العربى حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

يلاحظ على الأفغانى و محمد عبده أن إنتاجهما الرئيسى و ربما الوحيد كان فى مصر ، و رغم أنهما جابا البلاد طولا و عرضاً فان إنتاجهما خارج مصر غير ملحوظ و ربما يقترب من اللانتاج ، و هـذا فى الواقع إنما يعود إلى الحقيقة الجيوبوليتيكية لمصر ، فهى من العالم كله عموماً ومن الشرق الأوسط خصوصاً فى موقع يضخم رنين أى صوت فيها و ينقل موجاته إلى بقية العالم ، ولكنها فعلا هى أم الدنيا ، فعلا لا قولا ، حضارة سبعة الآف سنة ، عبقرية و خبرة فى هندسة معجزة حتى مقاييس اليوم ، نفس الاعجاز فى التحنيط و الصباغة و الكيمياء حتى بعد ثورة التكنولوجيا و الالكترون ، حتى فى العلوم الانسانية سبقت الجميع فى توحيد الخالق و كتب العبادات و الموت و ما بعد الموت ، و شكاوى المحكوم للحاكم إلخ ، و هى أيضاً الموقع الفاصل فى حركة التاريخ و نقل القوة الدولية و العالمية من يد إلى يد ، أو كما أوجز عمرو بن العاص « هى لمن غلب » بمفهوم أنها هى التى تقرر إذا مالت هنا أو هناك من يغلب .

و من ثم فان أثر الأفغانى و محمد عبده لا يمكن أن يقتصر على مصر ولا على الشرق الأوسط ولكنه أثر يمتد بدون تخطيط منهما إلى المجتمع البشرى الانسانى ، و يلقى ظلاله على الفكر الانسانى العام دون أن يهدفا هما إلى ذلك .

و إذا كان أى صوت يصدر فى مصر يرن خارجها فانها من الجانب الآخر ليس كل ما يصدر فى مصر هو مصرى الأصل ، فالأفغانى لم يؤثر فى بلده ولا فى العالم الذى تنقل فيه إنما ترك أثره الفعال فى مصر ، و محمد عبده من أصل كردى ، كأحمد عرابى و شوقى ، و الظاهر بيبرس من أصل روسى ، و على ذلك

الكبير بن فسيس يونانى ، و محمد على الكبير من أصل ألبانى ، و الجبرتى من أصل حبشى إلخ إلخ .

و كأنما « أم الدنيا » يجتمع لديها أبناؤها من كافة أنحاء الأرض ، كما يصل صدى صوتها إلى كافة أنحاء الأرض .

و إذا كان فكر محمد عبده قد دعا إلى التغيير عن طريق التعليم و بذلك دعا إلى التغيير الهادىء المتفق مع المزاج المصرى فان الأفغانى قد وضع بذرة الاسلام السياسى فى المنطقة ، قال : إن الاسلام ليس عبادات فقط ولكنه حكم و سياسية أيضاً ، وهذه الدعوة أنبتت فى مصر حسن البنا و مدرسته و سيد قطب و مدرسته و أنبتت خارج مصر دولة الباكستان و الثورة الايرانية وأثرت فى فكر الكثير من المستشرقين و أرباب الدراسات الشرقية فى جامعات الغرب ، و من هؤلاء كمثال ، أنور عبد الملك المصرى والأستاذ بالسوربون ، و عشرات من هؤلاء حالياً يصورون كتباً و دراسات ويعقدون مؤتمرات تناصر فكر الأفغانى أو تتداول فى تطبيقه أو ترسم خارطة المستقبل عندما يتحقق ، كأنما الاسلام السياسى هو قضاء جديد يرتاده رواد من جنسيات و أجناس و أديان مختلفة .

وإذا كان كل من محمد عبده وجمال الأفغانى لم يحققا فى حياتهما شيئا يذكر مما دعيا إليه أكثر من التشريد والنفى إلا أن البذرة التى ألقياها فى الأرض قد نمت و قد تطرح يوماً ما .

لقد تغير وجه المجتمع تماماً ، حدثت العلمنة Secularzation دون اللجوء إلى القوة كما حدث فى تركيا ، الكتاتيب اختفت تماماً لتحل محلها المدارس والمقررات الأوربية ومدارس اللغات والحضانة الأوربية ، تضاءل دور الأزهر بظهور الجامعات الأوربية المنهج ، و تضاءل أكثر بظهور طبقة الدعاة و المفسرين الهواة و سيطرتهم

الواسعة على الجماهير ، حتى إن الأزهر نفسه حول نفسه إلى جامعة علمانية فى بعض منه .

اختفت المحاكم الشرعية لنفسح الطريق أولا لمحاكم مختلطة و قنصلية ثم محاكم أهلية ، و اختفى قاضى الشرع و قاضى القضاة و بقيت بعض الرموز التذكارية ، و تعاظم دور القاضى المدنى و المحامى المدنى حتى وصل إلى التأثير السياسى المحلى و الدولى ، و استأثروا بالحكم تارة و بنقده تارة أخرى .

و اختفت الأوقاف بمدارسها و مستشفياتها و قد كانت هى الجهاز الحكومى الأول ، و كانت لها أراضى خصبة وعمارات شاهقة وأحياء كاملة و مدارس عريقة و أسواق شاملة ، تضاءلت إلى رمز تذكارى منسى .

و اختفت الأم و الجدة قعيدتا الدار لتظهر الأم العاملة و وكيلة الوزارة و رئيسة أجهزة تعليمية أو صحفية و دخلت الجيش و البوليس و الخارجية ، و وصلت إلى نصاب الأغلبية فى بعض الوزارات و المواقع ، و أصبحت تقبض من ميزانية الدولة مباشرة علاوة على ما تقبضه منها غير مباشرة عن طريق الزوج .

و اختفت الأسرة الكبيرة الأقرب إلى القبيلة ، و الدار الأقرب إلى الربع ، و اختفت حديقة الدار وحيوانات الدار الأليفة و فرن الدار و مضيفة الضيوف ، و ارتفعت أسياخ الحديد لتبنى عمارات متشابهة متطابقة كنسخ الصحيفة الواحدة يعيش فيها أفراد و أسر ويموتون دون أن يدرى أحدهم عن الآخر شيئاً ، و كل هذا الزحام حولك لا أحد ، لا أحد يعرفك و لا تعرفه و لا يهمك أن تعرفه و لا عندك وقت لكى تعرفه و معرفته عبء عليك و عليه .

و اختفت طبقة العبيد ثم طبقة الخدم ثم طبقة العمل اليدوى فى تجارة أو حدادة أو سباكة ، و اختفت الجلباب و الطربوش و المشروبات المحلية لتظهر - وعلى كل المستويات - الثلاجة والسيارة والتلفزيون و الصناعة الجماعية والزراعة

المجمعة و التسويق الجموعى، سواء فى شراء المحاصيل أو بيع الاستهلاكيات، وتتطور الفنون من مجهودات فردية إلى استعراضات جماعية و تنتشر المتعة - رخيصة أو غالية - إلى كل المستويات، ولو رصدنا كل أوجه التغيير لنسينا أكثر مما تذكرنا و لذكر غيرنا أضعاف ما نذكره له .

و لكن هل هذا التغيير بهذه الحدود الواسعة كان يقصده أو يتصوره دعاة التغيير و أنبياؤه أمثال الأفغانى و محمد عبده و قاسم أمين و غيرهم ، هل قاسم أمين عند ما طالب بتعليم الفتاة كان يتخيل أنها هى التى سوف تقود الاعلام فى بلده تمثيلا و تلفزيوناً وأنها سوف تقتحم آفاقاً بعيدة كالسفارات والشرطة والجيش وتحمل يوماً رتباً عسكرية .

أغلب ظنى أن التغيير حقق من العلمنة أكثر من القدر الذى رسمه رواده ، و حقق نقلة كبيرة بالمجتمع إلى حدود الجانب الآخر المنافس الذى كان الرواد الأوائل يعتبرونه خصما لا يجوز ترك السيطرة له ، إن معدل التغيير و مداه و عمقه كان فى مصر أوسع و أسرع و أعمق منه فى الهند أو فى اليابان أو حتى منه فى أوربا ، أى أمة لم تهتم بسرعة التطور الزمنى و حسب ، و لكنها تسارع بفعل أنزيمى معين .

فى الهند مثلا رغم أنها دخلت النادى الذرى وتصنع طائرات ميج ٣١٢٢٩ مما لم تصل بعد إلى حلف وارسو إلا أن غاندى كان يلبس زيه المعروف ، ونهرو يلبس الزى الهندى و بنته تلبس السارى الهندى و رغم وصول مسز غاندى إلى رئاسة الوزارة إلا أن نسبة النساء الموظفات فى الهند أقل كثيراً جداً منها فى مصر، وفى اليابان رغم غزوها لصناعات الغرب الالكترونية لا زالوا يقدسون الامبراطور و ينتحرون بالهارى كارى ويعتنقون الشنتو .

و هذا التغيير السريع و الواسع حصل فى مصر لم يسبقه فى سرعته و مداه إلا ما حصل فى دولة الخليج والجزيرة العربية بعد تفجر البترول ، اختفى الجهل تماماً واختفى صيد اللؤلؤ وتغيرت الأخلاق العربية وظهرت سلالة وأجيال عربية جديدة تماماً فى أفكارها و تصرفاتها و طموحاتها .

أداة التغيير فى مصر كانت المفكرين و المتنورين أمثال الأفغانى و محمد عبده و قاسم أمين و المدارس الفكرية التى أنشأوها حولهم ، و أداة التغيير فى الخليج كان البترول و شركات التنقيب و المال و رجال المال و التكنولوجيا و رجال التكنولوجيا و الرفاهية و كهنة الرفاهية ، و من ثم كان خطا التغيير مختلفين تماماً فى مسارهما و أهدافهما و نتائجهما الايجابية و السلبية ونظريتهما السياسية و الاجتماعية .

وإذ نستعرض هنا الآن التغيير الأول الذى أحدثه أمثال الأفغانى ومحمد عبده فاننا نلاحظ عليه أنه ركز هجوماً عنيفاً على رجال الطرق الصوفية وفكرهم الفولكلورى الذى يمتلئ بالكثير من البدع و الخرافات ، و نسب هذا الهجوم إلى المدرسة الصوفية هذه أنها السبب الأول فى رجعية الفكر و تأخره و تلويثه للوجه الحقيقى للدين و نجحت هذه الحملة فى تهذيب الصوفية ثم فى إذابتها إذابة تكاد تكون كاملة تماماً، و أصبح التهجم على الصوفية الشكل الشاغل لكل متعلم .

حقا إن هذه الحملة الأنثى صوفية قد حققت علمنة سريعة للمجتمع و ألحقته بسرعة كبيرة بالمستوى الأوربى و الغربى المتقدم و جعلت الفكر العام أعلى مستوى من فكر أوربا أثناء عصر النهضة ، و لكنى أظن أن هذه الحملة القوية العارمة قد هدمت طبقة الصوفية التى كانت هى صلة الوصل بين قادة العالم الاسلامى و بين جماهيره ، و كان هذا الانفصام أوضح ما يكون فى الاسلام السياسى .

فى الوقت الذى حدثت فيه علمنة كاملة حدث أيضاً عجز كامل لطبقة القادة و الصفوة عن ممارسة الاسلام السياسى ، و طالب كل قائد بفصل الاسلام عن

السياسة، طالب بذلك صراحة أو تلميحاً، وأصبح هذا الفصل بين الدين والسياسة من البرامج و الشروط المفروضة علناً أو واقعياً بطريقة فجة أو بطريقة مقبولة أو بطريقة كيسة و ذكية كمقال للأسلوب الذكى و الكيس كان أسلوب ثورة ١٩ عندما قالت: الدين لله والوطن للجميع ، و كمقال للطريقة المباشرة العنيفة ما فعلته الثورة الكمالية بعد ثورة ١٩ عندما حرمت العمامة و القفطان و اللغة العربية الخ ، ثم ما وقع من صدام مباشر بين الدولة و أتباع الاسلام السياسى فى الأربع حقبات الأخيرة فى مصر و سوريا وليبيا و العراق و السودان، وهو صدام رقعته أوسع و مدته أطول من أن يكون ظرفاً عابراً .

لقد كانت الصوفية تؤدى مهمة سياسية ناجحة لم يلتفت إليها مصلحونا ومفكرونا كانت هى قناة الوصل بين القادة و القاعدة، فى ظل الصوفية كانت الجماهير تحمل شكواها من الضرائب أو من الحاكم المتعسف أو من القسوة عموماً إلى المستويات العليا الحاكمة و العكس بالعكس وكانت هذة الطبقه من الانتشار و العمومية بحيث كان ضغطها على الجماهير من ناحية وعلى الحكام من ناحية يحقق وصلا قويا بينهما واستجابة كل طرف للآخر .

حقاً إنه كان يشوب تصرفات هذه الطبقة الكثير من الخزعبلات والسموم الفكرية ، ولكن هذه السموم جميعاً لم تكن إلا الفولكلور المحلى الممثل لشعب أمى شديد التعلق بالدين و شديد الممارسة للسياسة ، و كانت هذه « البدع » نوعا من الترياق الذى بقى ضد سم من نفس مادته .

كانت الطرق الصوفية بالملايين من الأعضاء و المعجبين و بأعلامها و طبولها و موالدها توصل رسالة سياسية سرية و شفوية بين الحاكم و المحكوم و المتعلم

(البقية على ص : ٣٧)

الدعوة الاسلامية :

« وجوب أداء الصلاة فى الجماعة »

سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
الرئيس العام لادارات البحوث العلمية
الافتاء و الدعوة و الارشاد الرياض

بلغنى أن كثيراً من الناس قد يتهاونون بأداء الصلاة فى الجماعة و يحتجون بتسهيل بعض العلماء فى ذلك فوجب على أن أبين عظم الأمر و خطورته ، وأنه لا ينبغى للمسلم أن يتهاون بأمر عظم الله شأنه فى كتابه العظيم ، و عظم شأنه رسوله الكريم (عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم) ولقد أكثر الله سبحانه من ذكر الصلاة فى كتابه الكريم ، وعظم شأنها ، و أمر بالمحافظة عليها و أدائها فى الجماعة، وأخبر أن التهاون بها و التكاسل عنها ، من صفات المنافقين ، فقال تعالى فى كتابه المبين :

(حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى و قوموا لله قانتين) .

و كيف يعرف الناس محافظة العبد عليها ، و تعظيمه لها ، و قد تخلف عن أدائها مع إخوانه وتهاون بشأنها، و قال تعالى : (و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و اركعوا مع الراكعين) وهذه الآية الكريمة نص فى وجوب الصلاة فى الجماعة ، و المشاركة للمسلين فى صلاتهم ، و لو كان المقصود إقامتها فقط لم تظهر مناسبة واضحة فى ختم الآية بقوله سبحانه : (و اركعوا مع الراكعين) لكونه

قد أمر باقامتها فى أول الآية ، وقال تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك و ليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) الآية.

فأوجب سبحانه أداء الصلاة فى الجماعة فى حال الحرب فكيف بحال السلم؟

و لو كان أحد يسامح فى ترك الصلاة فى جماعة ، لكان المصافون للعدو ، المهددون بهجومه عليهم أولى بأن يسمح لهم فى ترك الجماعة . فلما لم يقع ذلك علم أن أداء الصلاة فى جماعة من أهم الواجبات ، و أنه لا يجوز لأحد التخلف عن ذلك . و فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه : عن النبى ﷺ أنه قال : « لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلا أن يصلى بالناس ، ثم انطلق برجال معهم حزم من حطب ، إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم » الحديث .

و فى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : « لقد رأيتنا و ما يتخلف عن الصلاة إلا منافق علم نفاقه ، أو مريض ، و إن كان المريض ليمشى بين الرجلين حتى يأتى الصلاة » وقال : (إن رسول ﷺ علمنا سنن الهدى ، الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه) . و فيه أيضاً عنه قال (من سره أن يلقى الله غدا مسلما فليحافظ على هذه الصلوات حيث ينادى بهن فان الله شرع لنبيكم سنن الهدى ، وأنهن من سنن الهدى ، و لو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ، و لو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، و ما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد ، إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، و لقد رأيتنا و ما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، و لقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف) .

و فى صحيح مسلم أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا أعمى قال : يارسول الله إنه ليس لى قائد يلائمنى إلى المسجد فهل لى رخصة أن أصلى فى بيتى ؟ فقال له النبى ﷺ : « هل تسمع النداء بالصلاة » ؟ قال نعم ، قال : « فأجب » .

و الأحاديث الدالة على وجوب الصلاة فى الجماعة ، و على وجوب اقامتها فى بيوت الله التى أذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه ، كثيرة جداً ، فالواجب على كل مسلم العناية بهذا الأمر ، و المبادرة إليه ، و التواصى به ، مع أبنائه و أهل بيته و جيرانه و سائر إخوانه المسلمين ، امتثالا لأمر الله و رسوله ، و حذرا مما نهى الله عنه و رسوله ، وابتعادا عن مشابهة أهل النفاق الذين وصفهم الله بصفات ذميمة ، من أخبثها تكاسلهم عن الصلاة ، فقال تعالى : (إن المنافقين يخادعون الله و هو خادعهم و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس و لا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء و من يضلل الله فلن تجد له سبيلا) .

و لأن التخلف عن أدائها فى الجماعة من أعظم أسباب تركها بالكلية . و معلوم أن ترك الصلاة كفر وضلال و خروج عن دائرة الاسلام ، لقول النبى ﷺ (بين الرجل وبين الكفر و الشرك ترك الصلاة) خرجه مسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه . و قال ﷺ (العهد الذى بيننا و بينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) رواه الامام أحمد وأصحاب السنن الأربع باسناد صحيح ، والآيات و الأحاديث فى تعظيم شأن الصلاة ، و وجوب المحافظة عليها وإقامتها كما شرع الله و التحذير من تركها كثيرة و معلومة . فالواجب على كل مسلم أن يحافظ عليها فى أوقاتها ، و أن يقيمها كما شرع الله و أن يؤديها مع إخوانه فى الجماعة

فى بيوت الله ، طاعة لله سبحانه و لرسوله ﷺ ، و حذرا من غضب الله وأليم عقابه . ومتى ظهر الحق و اتضحت أدلته ، لم يجز لأحد أن يحيد عنه ، لقول فلان أو فلان ، لأن الله سبحانه يقول : (فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر ذلك خير و أحسن تأويلا) . و يقول سبحانه : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) . و لا يخفى ما فى الصلاة فى الجماعة من الفوائد الكثيرة ، و المصالح الجمة ، و من أوضح ذلك التعارف و التعاون على البر و التقوى و التواصى بالحق و الصبر عليه .

و تشجيع المتخلف ، و تعليم الجاهل ، و إغاظة أهل النفاق ، و البعد عن سبيلهم ، و إظهار شعائر الله بين عباده ، و الدعوة إليه سبحانه بالقول و العمل ، إلى غير ذلك من الفوائد الكثيرة .

وكثير من الناس قد يسهر بالليل ويتأخر عن صلاة الفجر وبعضهم يتخلف عن صلاة العشاء ، ولا شك أن ذلك منكر عظيم وتشبه بأعداء الدين المنافقين الذين قال الله فيهم سبحانه « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار و لن تجد لهم نصيراً » ، وقال فيهم عزوجل « المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسو الله ، فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات و الكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم و لعنهم الله ولهم عذاب مقيم » ، و قال سبحانه فى حقهم « و ما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم ألا أنهم كفروا بالله و برسوله و لا يأتون الصلاة إلا و هم كسالى و لا ينفقون إلا و هم كارهون ، فلا تعجبك أموالهم و لا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا و تزهق أنفسهم و هم كافرون » .

فيجب على كل مسلم و مسلمة الحذر من مشابهة هؤلاء المنافقين فى أعمالهم و أقوالهم و فى تثاقلهم عن الصلاة و تخلفهم عن صلاة الفجر و العشاء حتى لا يحشر معهم ، و قد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال « أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء و صلاة الفجر ، و لو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً » متفق على صحته . و قال ﷺ « من تشبه بقوم فهو منهم » رواه الامام أحمد من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما باسناد حسن .

وفقنى الله وإياكم لما فيه رضاه و صلاح أمر الدنيا و الآخرة ، و أعاذنا جميعا من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا و من مشابهة الكفار و المنافقين ، إنه جواد كريم .

(بقية المنشور على ص : ٣٢)

و الجاهل و تقربهما من بعضهما وتسد الثغرات أمام التسلل الغربى العقائدى و السياسى و الأخلاقى فى ثوب من الدروشة الظاهرية و لكنها فى باطنها تحمل وعياً واقعياً وعملياً لا شك فيه .

يمكن تقييم هذا الوعى الواقعى خارج النطاق الذى ضربت فيه الصوفية ، أى نطاق تركيا و الدول العربية التى كانت دائرة فى الفلك العثمانى ، نرى الصوفية نجحت فى تحقيق ثورة الجزائر ، نجحت فى إنشاء دولة السنوسى فى ليبيا رغم طمع إيطاليا قبل الحرب ثم أمريكا و روسياً معاً فيما بعد الحرب ، ونجحت فى تحقيق دولة إيران الجمهورية على أنقاض دولة الشاه ، و كادت تنجح فى تحقيق دولة المهدى فى السودان عقب فشل الثورة العربية فى مصر .

بين الشك و اليقين

(الحلقة الثانية)

الدكتور محمد سعد الشويعر

رئيس تحرير مجلة البحوث الاسلامية (الرياض)

و السؤال الذى يتبادر من هـذه الرسالة التى نحن بصددها : هل يترتب على الفقر و الغنى سعادة أو شقاوة فى الدنيا ؟ ؟ ، وهل هناك تفكير فى الثواب و العقاب فى الآخرة ؟ ؟ .

و الجواب عن الشق الأول هو : نعم ! و لكن كيف نعرف ذلك و ما مقياسه ؟ ؟ .

أما عن الشق الثانى : فانه يحكمه الايمان و تحركه العقيدة ، وبصلاح القلب تصلح الأعمال ، كما قال ﷺ : « ألا و إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

فمما لا شك فيه أن العامل المحرك لجواب هذا السؤال : هو الايمان بالله ، و الاعتراف بوحدانيته ، و الايمان بالقدر خيره وشره ، وذلك لا يقوى إلا باتباع شرعه ، و التصديق بذلك ، وفهمه جيداً ، كما أداه سلفنا الصالح ، الذين تلقوا ذلك عن رسول الله ﷺ علماً و طبقوه عملا .

فابن مسعود رضى الله عنه مثلا كان يقول : كنا إذا أخذنا عن رسول الله ﷺ عشر آيات لا نتجاوزهن حتى نحفظهن و نعرف معانيهن و أسباب نزولهن ، ثم إذا نظرنا فى واقع الناس اليوم ، و سجلات حياتهم فى كل زمان و مكان فاننا سوف نرى كثرة هموم ومشاغل بعض من كثر ماله ، فهو يخشى عليه من الضياع و الخسارة ، ويريد تدبيره بنفسه ، و قد يشغله ذلك عن عبادة ربه ، و الخشوع

له فى خلوته و عبادته ، و بالتالى قد ينعكس على صحته و علاقته بأسرته ، و أبناء مجتمعه ، و قد تنتابه الأوجاع ، و تتكاثر عنده الهموم و الأوهام ، لأنه يخشى أن يفلت هذا المال من بين يديه ، أو يصيبه مكروه ، مما يدفعه لرغبة الزيادة فيستحوذ عليه الجشع ، فيدخل فى الربا ، وهو مهلك لصاحبه ، و وبال عليه عند ربه ، وقس على هذا الجمال و الجاه و غيرهما مما يوقع فى المعاصى ، و يدفع إليها اختياراً أو قسراً من هذا الجانب .

فان كان ممن قوى إيمانه ، وحاسب نفسه ، و أدرك ما يجب عليه فى هذا المال حسب ما أملته الشريعة الاسلامية ، فلا شك أنه سيعرف الحكمة مما فى يده ، ويبدأ فى التصرف الحكيم فيما أعطى ، ولا يفتر بما تحت سمعه وبصره .

و بذلك يؤدى التوازن الذى طلبه منه الاسلام فى حق المجتمع ، لأن المال مال الله استحفظ عليه بعض النفوس البشرية ، وحدد ما يجب أن تعمل فيه أخذاً وعطاء ، لينظر كيف يعملون ، كما قال تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (١) و قوله تعالى : « و أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (٢) ومثل هذا يقال عن الجمال و الجاه و الصحة و غيرها .

وعلى قدر أعمال الناس ، و تصرفاتهم فيما بين أيديهم من مال ، أو صبرهم على ما ابتلاهم الله من فقر يحاسبون بعد الموت ، فقد يتمنى صاحب المال أنه لم يعط شيئاً عندما يرى نتيجة تقصيره فى حق الله ، و قد يفرح الفقير بما بقى من جزاء و أجر نتيجة رضاه و قناعة بما قسم الله له .

و حديث رسول الله ﷺ يعتبر منبئاً عن حال كائنة ، يأخذه المسلم بقناعة وعمل ، فيعرف النتيجة التى ستحل بكل واحد من البشر ، حين يقول : « لا تزل

(١) سورة النور الآية ٣٣ . (٢) سورة الحديد الآية ٧ .

قدم امرىء حتى يحاسب عن ثلاث : و فى رواية عن خمس - منها - : عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، و عن عمره فيما أمضاه » .

و لا يجب أن يتوقع أى إنسان بأن الغنى مصدر سعادة مطلقة فى الحياة الدنيا فطالما سمعنا عن أناس يتمنون الفقر ، و أن تزول عنهم أمراضهم أو همومهم ، أو بعض مشكلاتهم ، و التى جاء بأغلبها المال أو الجاه أو الجمال .

فراحة القلب فى القناعة ، وهدوء النفس مع قوة الايمان بالله ، و فهم حقيقة دين الاسلام ، والحكمة البالغة من مجريات الأمور ، ألم يقل الله سبحانه ؟ « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرلكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرلكم و الله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١) .

ويقول جل وعلا : « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » (٢) .

كما أن الفقر أيضاً لم يكن هو مصدر التعاسة و الشقاوة ، فمن وصايا لقمان الحكيم لابنه كما ذكره القرآن الكريم : « و اصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ، و لا تصعر خدك للناس و لا تمش فى الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور » (٣) .

و رسول الله ﷺ لم يرغب بسط الدنيا ، ولا تحويل جبال مكة ذهباً ، بل أحب عيشة الكفاف يجوع يوماً ويشبع يوماً ،وهو خير الخلق على الاطلاق ، و أفضلهم عند الله ، و أكرمهم و أعلاهم منزلة .

و فرعون و هامان ، و أبى بن خلف و الوليد بن المغيرة ، قد أعطاهم الله الملك و العز و المال و الجاه و الولد حسبما يظهر للناس من حالهم ، ومع هذا

(١) سورة البقرة آية ٢١٦ . (٢) سورة النساء الآية ١٩ .
(٣) سورة لقمان الآيتان ١٧ – ١٨ .

فهم أشقى الخلق و أبغضهم عند الله و أشدهم عذاباً حسبما ظهر من إخبار عن أحوالهم من القرآن الكريم و السنه المطهرة .

والصبر الذى جاء فى القرآن الكريم أكثرمن ستين مرة ، يجب أن يكون هو سلاح المؤمن فى كل أمر يمر به ، لأن به ينال الانسان الأجر العظيم ، فهو مدخل من مداخل الرضا بما قسم الله للعبد ، وهو علاج للقلب يريحه من العناء والقلق ، يقول الله سبحانه :

« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (١) .

و إلى جانب الصبر على الضراء ، لا بد من تعويد النفس الشكر على النعم المتكاثرة : فى النفس و الولد و المجتمع ، و أهمها الشكر على نعمة الاسلام ، حتى يرتبط العبد بخالقه ، والهداية للاسلام فضل عظيم اختص الله به من شاء من عباده « بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان » (٢) .

و هذا مما يريح النفوس يقول ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، و إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم .

و هذا مشهد من مشاهد الدار الآخرة يوضحه ﷺ فيما يتعلق بأصحاب الدنيا الذين وسع الله عليهم ، و لم يؤدوا حق الله فى ذلك بالشكر و العطاء ، و لا بالعرفان و العمل ، يسوقه الرسول ﷺ لتأخذ منه الأمة عبرة ، و ليكون تذكرة لذوى العقول الواعية ، ونصه كما جاء فى صحيح مسلم : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ، هل مر بك شدة قط ؟ ؟ ، فيقول : لا و الله يا رب .

(١) سورة الزمر الآية ١٠ . (٢) سورة الحجرات الآية ١٧ .

و يؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ، وهل مرباك شدة قط ؟ ؟ ، فيقول : لا و الله ما مر بى بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » .

فاذا كان هذا من مشاهد يوم البعث و النشور المغيب عنا ما فيه ، إلا ما أخبر به القرآن أو تحدث عنه رسول الله ﷺ ، فان هذا من باب تحريك القلوب ، و إيقاظ النفوس من غفلتها ، لمعرفة السبب الحقيقى من حياتنا القصيرة فى عمر الآخرة و ما فيها من الأهوال و ما خفى عليها من الأسرار و الحكم ، ثم ما يجب أن تتذرع به و هو الصبر مع احتساب الأجر فى ذلك عند الله كما قال تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

فقد سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه رجلا يقول : بئس الدنيا وبئس طالبها ، فقال له : لا تقل هكذا و لكن نعمت الدنيا ونعم العمل فيها ، فانها مزرعة للآخرة .

و إن مما يقرب إلى أذهاننا ما نرى ونسمع فى واقع حياتنا ، فلو سألنا شيخا معمراً عما مر به فى حياته من نعيم أو بؤس : لكان جوابه : إن ذلك شبه حلم ليلة ،ولا يعلق بذهنه من ذلك إلا خيوط رقيقة ، وقد ضاعت المعالم فى الحالين ، لأن الذى أجد لذته هو العمل الطيب الذى بذلته ، أما غيره فانه يؤرقنى .

و من هنا فانه لا يحسن أن يسيطر على النفوس أغلب ما تثيره هواجس الناس ، وظنونهم بأن التفاضل فى الدنيا بالمال والجاه ، والتكاثر و التنافر ، والجمال و الوسامة ، بل يجب أن يكون النظر إلى الجوهر ، و هو ما يحرك هذا كله فى النفس ، بالايمان الذى يمسك القلوب ، ويسيطر على الأفئدة فقد أخبر ﷺ عن الجوهر فى ذلك بقوله : « إن الله لا ينظر إلى صوركم و أجسامكم و لكن ينظر إلى قلوبكم و أعمالكم » .

فالنفوس إذا تحصنت به وفهمت ما تنطوى عليه تعاليم الاسلام ، وتعمقت فى أسرار التشريع ، فدعها تناقش و تحاور ، لأنها ستصل إلى الحقيقة الصافية ، مثل من يلقى فى الماء: فان كان يجيد السباحة لا يضيره طول المكث ، و إن كان بالعكس فهو سوف يغرق ، و زمن الغرق تحدده المقاومة غير المنتظمة .

ومتاعب الحياة جزء من كيانها ، فلا بد من الصبر عليها ، و مغالبة النفس ، ذلك أن الله جلت قدرته أرادها كذلك ، حافلة بالمتاعب و الآلام ، حتى يشتاق الناس إلى الجنة ، التى حفت بالمكاره ، حيث لاهم ولا حزن و لا مرض و لا سقم ، ومع ما فى هذه الحياة من بلايا ومحن ، كما يقول صاحب كتاب « عمل اليوم و الليله » : نرى الناس يتكالبون عليها ، و كأنهم سيخلدون فيها ، ولو أراد الله الحياة سهلة لأحد من عباده ، لأرادها لأنبيائه ورسله ، و للمؤمنين ، بل إن المؤمن أكثر تعرضاً للبلاء من غيره حتى ورد فى الحديث : عن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أى الناس أشد بلاء قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، و إن كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ، وما عليه خطيئة » رواه الترمذى (١) .

و إن من عظم فضل الله أن جعل ما يتعرض له المؤمن من البلاء تكفيراً له من الذنوب ، و تطهيراً له من الخطايا و الآثام .

و الآية الكريمة : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٢) ، تحدد المنزلة عند الله بمقدار ما تتشبع به النفوس من إيمان و تقوى ، لأن التقوى منزله أعمق فى العقيدة من الايمان .

(١) أنظر ص ٢٩٢ من هذا الكتاب (٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

و مراتب العقيدة أربع : الاسلام وهو المدخل الأول لها بأركانه الخمسة أداء وعملا ، و الايمان : و هو المنزلة الثانية بعد تأصل الاسلام و أركانه الستة تنبئ على أنه تصديق بالقلب .

و الاحسان : وهو المرتبة الثالثة ، وهو ركن واحد ، يتمثل فى مراقبه الله فى السر والعلن .

و التقوى : هى حصيلة ذلك كله ، وتتربع على قمته لأنها تسليم الأمور لله وحده جميعها .

و يؤكد معنى الآية الكريمة حديث رسول الله ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم و أجسامكم ، و لكن ينظر إلى قلوبكم » .

فقد يكون الجمال الذى وهب لانسان وبالا عليه ، ومصدر تعاسة ، كما قد يكون المال كذلك فتنة فى النفس و العمل ، وسيطرة على الهواجس ، و مصائب تضر بمن أعطى هذا المال ، بينما الناس يتوقعون ذلك مصدر سعادة و قبول ، لأن النفس البشرية دائماً تتطلع إلى ما حجب عنها كما يقول الشاعر :

أحب شئ إلى الانسان ما منعا ... منعت شيئاً فأكثرت الولوع به

و من قصة قارون نأخذ العبرة ، كما حكاها القرآن فى حوار يمثل نظرة الناس العاجلة ، وعدم إدراكهم للاسرار الخفية التى هى من حكمة الله فى العطاء أو المنع ، قال تعالى : « فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ، فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، و أصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ،

لو لا أن من الله علينا لخسف بنا ، و يكأنه لا يفلح الكافرون » (١) .

ثم ختم الله سبحانه هذه الحكمة بالجزاء الأخروى الذى يجب أن يكون أمام عينى المسلم دائماً ، لمن عرف الله حق المعرفة ، بأداء ما يجب عليه عقيدة فى القلب ، و رضاء بما قسم الله ، و توكلا عليه حق التوكل .

وبالبحث عن السعادة فى العطاء و العمل والقناعة بما رزق الله ، يقول تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين (٢) و لقد أعطانا رسول الله ﷺ دروساً توضيحية فى القناعة و الشكر ، و تعويد النفوس التهذب على تلك الطباع ، لأن النفوس جموحة لا يرد عنها إلا قيود النعم و العرفان الكامل بحقيقة الأوامر الشرعية ، ثم مغالبة النفس على العمل ، و قسرها على صعاب الأمور شيئاً فشيئاً ، حتى تعود عليها ، وترتاح إليها كالفرس الأصيل ، فانها تحتاج إلى من يسايسها فترة طويلة ، حتى تتطوع و يلين مراسها.

و نحن عند ما نرى تفاوتاً فى الصفات أو النعم كالجمال و القبح ، و الغنى و الفقر و الصحة و المرض و غير ذلك .

فاننا حتماً سنرى جوانب أخرى تغطى ما يقابلها ، لأن الحياة الدنيا سمتها المكابدة ، و عدم الاستقرار على وتيرة واحدة ، و الانسان فيها فى كبد مستمر ، و لا يردع النفوس و يجعلها ترضى بحالة معينة إلا النصوص الشرعية التى هى تعليمات للنفوس من الله وتوجيهات من رسوله الكريم ﷺ لما فيه خيرها وسعادتها ، و زاجر قوى يوقفها عن غيها خوفاً من الله و رهبة من عقابه ، نجد مثل هذا فى مثل قوله ﷺ : « لا تنظر إلى من فوقك و انظر إلى من تحتك ، فانك إن

(١) سورة القصص الآيات ٧٩ — ٨٢ .

(٢) سورة القصص الآية ٨٣ .

نظرت إلى من فوقك كفرت نعمـــة الله عليك ، و إن نظرت إلى من تحتك ، شكرت نعمة الله عليك » .

وقوله ﷺ : « لمن رأى مبتلى بأن يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به و فضلنى على كثير ممن خلق تفضيلا » .

لأن الدنيا لا تكون صافية من الكدر أبداً ، و لا يكون الناس فيها على حال واحدة ، و إلا لفسد طعمها ، و ذهبت طلاوتها .

فان فى هذا درساً فى القناعة ، و تعويداً للنفس بالتفكر فى حكمة الخلق ، واتجاهاً بالنفس إلى خالق الكون و مدبره سبحانه الذى : لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (١) و فى هذا تمعن فى حكم الله الكثيرة التى لا ندرك أسرارها ، لأن الله وزع الطباع و العادات فى البشر كما وزع الأرزاق ، لمصلحة يحسها النـاس ، وحكم قد يظهر للناس بعضها كخدمة بعضهم لبعض ، إذ لا يستغنى واحد عن الآخر فالغنى فى حاجة للصانع و الفلاح و صاحب الحرفـة ، و هكذا نجد المجتمع كتلة واحدة ، بعضهم يكمل بعضاً ويواسى الآخر ويعينه فالغنى يبذل من ماله ، و العامل يبذل من جهده ، و المفكر يقدم من حصيلته .

وإلى جانب ذلك قد تبرز حكمة أخرى ، وهو أنه إلى جانب الميزة الظاهرة التى نراها فاضلة عن غيرها ، قد توجـــد خصال ذميمة تفسد ذلك الذى نراه جمالا ، أو بالعكس ، فقد تكون هذه المرأة الجميلة حمقاء فى أخلاقها ، أو ساقطة فى مسلكها ، أو سيئة فى تصرفاتها ، و تكون الأخرى الذميمة فى شكلها ، حسنة فى أخلاقها ، جميلة فى تصرفاتها و حسن إدارتها لبيتها ، و تربيتها لأولادها ، مطيعة لربها ، محافظة على شرفها ، إلى جانب صفات و طباع فى كل منها حسناً و قبحاً لا تظهر للناس الآخرين .

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٣ .

و هذا جزء من أسرار الحكمة التى قد يظهر لنا بعضها أو لا يظهر إلا ببحث وتقص ، ذلك أن الخواتيم عليها عند الله ، ألم يقل الله سبحانه فى كتابه الكريم : « و نبلوكم بالشر و الخير فتنة ، و إلينا ترجعون (١) .

و لقـــد أخبر ﷺ فى حديث قدسى يرويه عن ربه تبارك و تعالى بقوله جل و علا : « إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا بالغنى فلو أفقرته لأفسد عليـــه ذلك و إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر فلو أغنيته لأفسد عليه ذلك .

وفى حياة الناس ، وما تتقلب فيه أحوالهم عبر لمن يريد الاعتبار ، ويطول بنا المقام لو استرسلنا .

ولكن نعود من حيث بدأنا : بأن قوة الايمان بالله ، وامتثال أمره حسب مصدرى التشريع : كتـاب الله و سنة نبيه محمد ﷺ ، و عرض كل أمر يمر بالمسلم عليهما فهماً وعملا ، مع الصدور قناعة عن المفهوم الحقيق لذلك النص دون تعديل أو تجويز ، أو التماس مخارج حسب الأهواء النفسية ، إن ذلك هو المخرج من كل نازلة تهبط على النفس ، أو نازعة شك تراودها ، أو هاجس قلق يدب فى أوصالهـا .

فان فى هذا إجابة لكل سؤال ، وخروجاً من كل مشكلة ، ودعوة لاطمئنان القلوب التى باطمئنانها ينكمش الشك ، و تبدد الوساوس ، و يزول كل مؤثر يمس سلامـــة الايمان بالميل مع أصحاب الأهواء ، و مثيرى الفزع فى النفس ، و علاج ذلك الاكثـار من ذكر الله ، و التمعن فى أسرار مخلوقاته ، و الله يقول و قوله الحق : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٢) و عرض الجوانب المظلمة

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٥ . (٢) سورة الرعد الآية ٢٨ .

إلى جانب الأمور المضيئة فى كل أمر ليحصل التوازن و يتحقق الاطمئنان الذى أمر الله به ، و ذاك بربط الأسباب بالمسببات .

و هذا ما يسمى فى العلم الحديث الأمن النفسى ، بحيث يريح النفس من القلق ويباعدها من الوساوس و الحيرة ، ويعطيها سلاحاً يهدىء روحها ، يفعل فيها أكثر مما تفعله العقاقير الطبية بالجسم المريض : لأن العقاقير سموم تدخل الجسم و قد تضر به على المدى الطويل بتأثيرات معاكسة .

أما الراحة النفسية بالعلاج الاسلامى ، و المهدىء الايمانى ، فتأثيره قوى ، و أثره العلاجى عجيب ولا مخاطر منه ، بل بالعكس له فوائد يعجز عن حصرها الأطباء ، ولذا بدأ علماء النفس المسلمون يسلبون ألباب أطباء الغرب فى هذا المجال بما يتركون فى مرضاهم من تأثير الكلمة و الوعظ ، و سماع القرآن ، و التمعن فى أحاديث رسول الله ﷺ و شحن النفس بسلاح قوى من الايمان المطمئن ، و اليقين المرضى ، و الرضا والاستسلام بما قسم الله ، و تسليم الأمور له سبحانه و شكره على كل حال .

و هى دعوة لشباب اليوم : رجالا و نساء بأن يلتمسوا لكل شك مخرجاً ، و لكل مرض اجتماعى علاجاً ، بتقوية النفس بالايمان ، و معالجة المؤثر من تباين المجتمع ، بادراك السر الذى يكمن خلف وجود البشر فى هذه الحياة واختلاف أجناسهم و لغاتهم و مستوياتهم ، و درجات بعضهم فوق بعض ، فهذا كله لحكمة أرادها الله ، و لعمار الكون بهذا التباين ، ولذة الحياة بالعمل ، والثواب والعقاب بحسن ذلك أو سوئه ، و ما علينا إلا الرضا ، و عدم الجزع مما قدره الله ، لأنه أدرى بعباده و ما يصلح أحوالهم و معاشهم ، فهو سبحانه الخالق و الرزاق وهو المبدىء و هو المعيد ، له الأمر و إليه ترجع العباد ، فيجازيهم بأعمالهم إن خيراً

فخير ، و إن شراً فشر ، و كل هذا بعدل منه و رحمة فهو سبحانه قد حرم الظلم على نفسه و جعله بين عباده محرماً .

والله سبحانه يختبر إيمان عباده -وهو سبحانه أعلم بهم- قوة وضعفاً ، صبراً وقناعة ، أو عدم رضا بمثل هذه الأمور التى يظهر منها للناس مفاهيم متباينة حسبما يقول الله سبحانه فى سورة البقرة : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال و الأنفس و الثمرات و بشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم و رحمة و أولئك هم المهتدون (١) فلا مريح للقلب إلا ما رسمه الله لعباده المهتدين الممثلين نسأل الله السلامة من كل شر و شك ، و نسأله القوة فى الايمان حتى ترتدع نفوسنا عن الاستسلام لما يؤثر فى سلامة الايمان ، و ندعوه سبحانه بدعوة عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند ما ساوره الشك فى بعض الأمور فقال : اللهم إيماناً كايمان العجائز ، و نعوذ بالله من الجدل الذى هو مدخل للشك ، فاذا ابتعد الشك صرنا إلى اليقين أقرب ، و بشرع الله ألصق .

و الله الهادى إلى سواء السبيل .

(١) سورة البقرة الآيات ١٥٥ - ١٥٧ .

دراسات و أبحاث :

منهج الامام مالك فى كتابه « المؤطأ »

دكتور تقى الدين الندوى
أستاذ الحديث الشريف بجامعة الامارات ، العين

الموطأ و مكانته فى الاسلام :

من أشهر الكتب المؤلفة فى القرن الثانى الموطأ للامام مالك بن أنس ، أمام دار الهجرة ، فقد لقى قبولا كبيراً لدى العلماء فى كل زمان .

قال أبو بكر بن العربى فى « شرح الترمذى » الموطأ هو الأصل الأول و اللباب و كتاب البخارى هو الأصل الثانى فى هذا الباب ، و عليـــه بنى الجميع كمسلم و الترمذى .

قال الامام ولى الله الدهلوى وطئاً ، العمرى نسباً فى كتابه « المسوى » : كتاب الموطأ أصح الكتب و أشهرها و أقدمها و أجمعها ، و قد اتفق السواد الأعظم من الملة المرحومة على العمل به ، و الاجتهاد فى روايته و درايته و الاعتناء بشرح مشكلاته ومعضلاته و الاهتمام باستنباط معانيه وتشييد مبانيه ، و من تتبع مذاهبهم و رزق الانصاف من نفسه علم لا محالة أن الموطأ عدة مذهب مالك و أساسه وعمدة مذهب الشافعى وأحمد ورأسه ، ومصباح مذهب أبى حنيفة وصاحبيه ونبراسه.

و هذه المذاهب: بالنسبة للموطأ كالشروح للمتون و هو منها بمنزلة الدوحة من الغصون ، وعلم أيضاً أن الكتب المصنفة فى السنن كصحيح مسلم وسنن أبى داود وما يتعلق بالفقه من صحيح البخارى وجامع الترمذى مستخرجات على الموطأ ، تحوم حومه وتروم رومه ، مطمع نظرهم منها وصل ما أرسله ورفع ما أوقفه ، واستدراك ما فاته ، وذكر المتابعات و الشواهد لما أسنده .

و بالجملة فلا يمكن تحقيق الحق فى هذا و لا ذاك إلا بالاكباب على هذا الكتاب (١) وعلق عليه الشيخ المحدث حبيب الله الشنقيطى فى كتابه (دليل السالك إلى موطأ مالك) ومما هو ضرورى عند المحدثين أن مشايخ الكتب الستة و من عاصرهم كالامام أحمد فى « مسنده » أغلبهم تلامذة الامام مالك الذى رووا عنه الموطأ بروايات عديدة ، قل أن تخلو واحدة منها عن زيادة تنفرد بها ، و لم يتركوا شيئاً من أحاديث الموطأ بل أخرجوها فى مصنفاتهم ، وصلوهـا كثيراً من مرسلاتهم ومنقطعاتهم وموقوفاتهم ، وبذلك يتضح ما قال الامام ولى الله الدهلوى (٢) .

وجه تسمية الموطأ :

معنى الموطأ فى اللغة المذلل الممهد أى لا يمتنع على الناس فهمه ، و فى « القاموس » وطئه أى هينه ودمثه وسهله .

يقول الزرقانى : ولفظة الموطأ : بمعنى الممهد المنقح .

قال مالك : عرضت كتابى هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلهم واطأنى عليه فسميته الموطأ (٣) .

وروى أن مالكا لما أراد أن يؤلف بقى متفكراً فى أى اسم يسمى تأليفه؟.

قال : فنمت ، فرأيت النبى ﷺ فقال لى : « وطئ للناس هذا العلم » .

فسمى كتابه الموطأ .

سبب تأليف الموطأ :

أخرج ابن عبد البر عن الفضل بن محمد بن حرب المدنى قال : أول من عمل

(١) مقدمة أوجز المسالك ـ ص ٣٠ .
(٢) دليل المسالك ـ ص ١٤ .
(٣) مقدمة أوجز المسالك ـ ص ٣١

كتاباً بالمدينـــة على معنى « الموطأ » من ذكر ما اجتمع عليه أهل المدينة هو عبد العزيز بن أبى سلمـــة الماجشون ، وعمل ذلك كلاماً بغير حديث ، فأتى به مالكا ، فنظر فيه فقال : ما أحسن ما عمل ؟ ولو كنت أنا الذى عملت ابتدأت بالآثار ، ثم شددت ذلك بالكلام ، ثم عزم مالك على تصنيفه ، فصنفه ، (١) .

و روى أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك : ضع للناس كتاباً احملهم عليه فكلمه مالك فى ذاك ، فقال : ضعه ، فما أحد اليوم أعلم منك فوضع الموطأ ، فلم يفرغ منه حتى مات أبو جعفر .

و فى رواية : أن المنصور قال : ضع هذا العلم و دون كتاباً ، وجنب فيه شدائد ابن عمر ، ورخص ابن عباب و شواذ ابن مسعود ، رضى الله عنهـــم ، و اقصد أوسط الأمور وما اجتمع عليه الصحابة و الأئمة (٢) .

تنبيه علم :

روى الخطيب قال : قال الرشيد لمالك لم نر فى كتابك ذكراً لعلى و ابن عباس ، فقال : يا أمير المؤمنين : لم يكونا ببلدى ولم ألق رجالهما ، فان صح هذا فكأنه أراد ذكراً كثيراً ، و إلا فى الموطأ أحاديث عنهما .

علق عليه العلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى : و الأوجه عندى أنه ذكر روايتهما بعد ذلك ، فانه رضى الله عنه كان ينقيه و يختبره عاماً فعاماً ، ولذا ترى الاختلاف فى النسخ من الزيادة و النقصان (٣) .

(١) مقدمة أوجز المسالك - ص ٣٣ .

(٢) ترتيب المدارك - ص ٢ ، ٧١ و ٧٣ .

(٣) مقدمة أوجز المسالك - ص ٣١ .

عناية هارون الرشيد بالموطأ :

قال أبو نعيم فى « الحلية » عن مالك ، قال : شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلق « الموطأ » على الكعبة و يحمل الناس على ما فيه ، فقلت : لا تفعل ، فان أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا فى الفروع و تفرقوا فى البلدان ، و كل مصيب ، فقال : وفقك الله يا أبا عبد الله .

و روى ابن سعد فى « الطبقات » عن مالك أنه لما حج المنصور قال لى : عزمت على أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها فتنسخ ، أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، و آمرهم أن يعملوا بما فيها و لا يتعدوا إلى غيرها ، فقلت : لا تفعل هذا ، فان الناس قد سبقت إليهم الأقاويل ، وسمعوا الأحاديث ، و رووا روايات و أخذ كل قوم بما سبق إليهم ، و دانوا به ، فدع الناس و ما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم ، (١) .

مكانة الموطأ بين كتب السنة :

إن جمهور العلماء قد عدوا الموطأ فى الطبقة الأولى من كتب الحديث ، قال الامام ولى الله الدهلوى : فالطبقـــة الأولى منحصرة بالاستقراء فى ثلاثة كتب ، الموطأ ، وصحيح البخارى وصحيح مسلم ، قال الشافعى : أصح الكتب بعد كتاب الله موطأ مالك (٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٧٨ و الانتقاء ص ٤٢ .

(٢) حجة الله البالغة ١ / ١٣٢ .

و قال النووى فى (الأسماء و اللغات فى ١ ص ٧٧) : قال العلماء : إنما قال الشافعى هذا قبل وجود صحيحى البخارى و مسلم وهما أصح من الموطأ باتفاق العلماء .

و ذكر صاحب « مفتاح السعادة » ترتيب كتب الحديث هكذا : البخارى ثم مسلم ثم أبو داود ثم الترمذى ثم النسائى ثم قال : و أعلم أن الامام النووى عد كتب الأصول خمسة و هى التى ذكرتها إلا أن الجمهور جعلوها ستة وعدوا منها موطأ الامام مالك و جعلوه بعد الترمذى وقبل النسائى ، و الحق أنه بعد مسلم فى الرتبة (١) .

قال ابن حزم الأندلسى : يقال أجل المصنفات : « الموطأ » فقال : بل أولى الكتب بالتعظيم صحيحاً البخارى ومسلم ، ثم ذكر عدة كتب من مصادر السنة و أخر ذكر الموطأ من كثير منها ، فعلق عليه الحافظ الذهبي وقال : ما أنصف ابن حزم ، بل رتبة الموطأ أن يذكر تلو الصحيحين مع سنن أبى داود والنسائى ، لكنه تأدب و قدم المسندات الصرف ، و إن للموطأ لوقعاً فى النفوس و مهابة فى القلوب ، لا يوازنها شيئ (٢) .

قلت : إن اختلاف العلماء فى بيان رتبة الموطأ مبنى على اختلاف اعتبارات ، فمن نظر إلى اختلاط الأحاديث بالفروع أجعله مؤخراً و من نظر إلى صحة أسانيد الروايات فى الكتاب جعله مقدماً .

عدد روايات الموطأ :

جملة ما فى الموطأ من الأحاديث ألف وسبعمائة وعشرون ، المسند منها ٦٠٠ ، و المرسل ٢٢٢ ، و الموقوف ٦١٣ و من أقوال التابعين ٢٨٥ .

و للموطأ عدة روايات فيها زيادة و نقصان ، كل حسب روايته ، (٣) .

(١) مقدمة أوجز المسالك ص ٣٢ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٢٠٢ .
(٣) مقدمة أوجز المسالك ص ٤٢ .

منهج مالك فى تأليف الموطأ :

ألفه الامام مالك مشتملا على أحاديث الرسول ﷺ و أقوال الصحابة و فتاوى التابعين ، و تحرى فيه القوى من حديث أهل الحجاز .

قال الحافظ ابن حجر العسقلانى :

« وقد صنف الامام مالك الموطأ ، وتوخى فيه القوى من أحاديث الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة و التابعين و من بعدهم » (١) .

قال الامام ولى الله الدهلوى : و كان مالك من أثبتهم فى حديث المدنيين عن رسول الله ﷺ ، و أوثقهم إسناداً و أعلمهم بقضايا عمر و أقاويل عبد الله ابن عمر و عائشة و أصحابهم من الفقهاء السبعة ، وبه و بأمثاله قام علم الرواية و الفتوى فلما وسد اليه الأمر حدث وأفتى و أفاد و أجاد و عليه انطبق قول النبى ﷺ : يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة ، على ما قاله ابن عيينة و عبد الرزاق ، وناهيك عنهما (٢) .

ومن عادة الامام مالك فى « الموطأ » أنه ذكر فى ترجمة الباب ما جاء فيه عن رسول الله ﷺ ، ثم يذكر ما ورد فيه من الآثار عن الصحابة والتابعين وندر أن يكونوا من غير أهل المدينة لأن مالكا لم يرحل عنها ، و أحياناً يذكر ما عليه العمل أو الأمر المجتمع عليه فى المدينة ، و أحياناً يتبع الحديث بتفسير كلمة لغوية أو بيان المراد من بعض الجمل ، وهذا هو المنهج الذى رسمه لنفسه ، والذى يقوم عليه كتابه « الموطأ » يؤيدنا فى هذا ما قاله ابن أبى أويس أحد تلاميذ مالك فهو يقول : قيل لمالك : قولك فى الكتاب : الأمر المجتمع عليه ، والأمر

(١) مقدمة فتح البارى ص ٦ .
(٢) حجة الله البالغة ١/ ١٤٦ .

عندنا و ببلدنا، و أدركت أهل العلم، وسمعت بعض أهل العلم، فقال : أما أكثر ما فى الكتاب « فرأيى » فلعمرى ما هو برأيى ، و لكن سماع من غير واحد من أهل العلم و الفضل و الأئمة المقتدى بهم الذين أخذت عنهم ، وهم الذين كانوا يتقون الله ، فكثر على فقلت : رأيى ، وذلك رأيى إذكان رأيهم مثل رأى الصحابة ، أدركوهم عليه و أدركتهم أنا على ذلك ، فهذا وراثة توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا ، و ما كان « رأيا » فهو رأى جماعة ممن تقدم من الأئمة .

و ما كان فيه « الأمر المجتمع عليه » فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه و العلم لم يختلفوا فيه ، و ما قلت : « الأمر عندنا » فهو ما عمل الناس به عندنا ، و جرت به الأحكام ، و عرفه الجاهل و العالم .

وأما ما لم اسمع منهم فاجتهدت و نظرت على مذهب من لقيته، حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريباً منه ، حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة و آرائهم، وإن لم أسمع ذلك بعينه ، فنسبت الرأى إلى نص الاجتهاد مع السنة ، وما مضى عليه أهل العلم المقتدى بهم و الأمر المعمول به عندنا منذ لدن رسول الله ﷺ و الأئمة الراشدين ، مع من لقيت ، فذلك رأيهم ما خرجت إلى غيرهم (١) .

هذا هو المنهج الذى اختاره الامام مالك يدلنا على أنه كان ينقل رواية ، شأنه فى ذلك شأن كل العلماء فى عصره، إلا أنه دون ما رواه ، وفسر ما نقله فهو رواية من ناحية، و مجتهد من ناحية أخرى ، رواية للحديث النبوى الشريف و رواية من أخذ عنهم من المجتهدين و ما رضى به علماء أهل المدينة لأنفسهم مما أخذوه عن السلف الصالح ، و هو مقيد نفسه بذلك كله لا يحيد عنه .

(١) ترتيب المدارك ج ٢ ص ٧٤ و الديباج المذهب ٢٥/١٠ .

موقف الامام مالك من الأسانيد و تحريه فى الحديث :

من تتبع سيرة الامام مالك يجد أنه كان كثير التحرى فى المتون و شديد الانتقاء فى الرجال، شهد بذلك كبار أمة الحديث، لما كان « الموطأ » هو خلاصة لجهود هذا الامام الجليل و المحدث الكبير جاء كتاباً متقناً فى بابه ، و قد اعترف العلماء قديماً و حديثاً أن أحاديث الموطأ كلها صحيحة (١) .

قال الشافعى : صدق و بر : و إذا ذكر العلماء فمالك النجم .

و قد كان مالك اماماً فى نقد الرجال ، حافظاً ، مجوداً ، متقناً .

قال بشر ابن عمر الزهرانى : سألت مالكا عن رجل، فقال رأيته فى كتبى ؟ قلت : لا ، قال : لو كان ثقة لرأيته (٢) .

علق عليه الحافظ الذهبى و يقول : فهذا القول يعطيك بأنه لا يروى إلا عمن هو عنده ثقة و لا يلزم من ذلك أنه يروى عن كل الثقات ، ثم لا يلزم مما قال أن كل من روى عنه و هو عنده ثقة أن يكون ثقة عند باقى الحفاظ ، فقد يخفى عليه من حال شيخه ما يظهر لغيره إلا أنه بكل حال كثير التحرى فى نقد الرجال - رحمه الله .

قال مالك : ربما جلس إلينا الشيخ فيحدث جل نهاره ما نأخذ عنه حديثاً واحداً ، و مالنا أن نتهمه و لكن لم يكن من أهل الحديث (٣) .

قال على بن المدينى عن ابن عيينة ، ما كان أشد انتقاد مالك للرجال ،

(١) تدريب الراوى ١٠٩٠ .

(٢) تهذيب الأسماء و اللغات ٧٧/١ ، مقدمة صحيح مسلم ص ٢٦ .

(٣) تدريب الراوى ١٠٩٠ .

و أعلمهم بشأنهم و قال على: لا أعلم ترك مالك إنساناً إلا من فى حديثه شيئ .

و كان وهيب لا يعدل بمالك أحداً (١) .

قال على : مالك أمان فيمن حدث عنه من الرجال (٢) .

عن عبد الرحمن بن مهدى قال: ما أقدم على مالك فى صحة الحديث أحداً .

وعن أحمد بن حنبل قال : مالك أثبت أصحاب الزهرى مالك .

وقال أبو حاتم الرازى : مالك ثقة امام أهل الحجاز ، وهو أثبت أصحاب الزهرى ، وإذا اختلفوا فالحكم لمالك و مالك تقى الرجال نقى الحديث وهو أتقن حديثاً من الثورى و الأوزاعى (٣) .

قال محمد بن رمح : رأيت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله ﷺ ! إن مالكا و الليث يختلفان فبأيهما آخذ ، قال: مالك مالك (٤) .

و قد بالغ فى التحرى لاخراج الحديث فى كتابه « الموطأ » .

و قد أخرج ابن عبد البر عن عمر بن عبد الواحد عن صاحب الأوزاعى: قال عرضنا على مالك « الموطأ » فى أربعين يوماً فقال : كتاب ألفته فى أربعين سنة أخذتموه فى أربعين يوماً ، ما أقل ما تفقهون فيه (٥) .

ولذلك صرح الخطيب و غيره أن الموطأ مقدم على كل كتاب من الجوامع و المسانيد (٦) .

(١) تذكرة الحفاظ ٢٠٨/١، وتهذيب التهذيب ٩/١٠، وسير أعلام النبلاء ٧٢/٨.

(٢) الحلية ج ٣٢٢/٦ .

(٣) تهذيب الأسماء و اللغات ج ٧٨/١ .

(٤) تهذيب التهذيب ج ٥/١ و مقدمة الجرح و التعديل ص ٢٣ .

(٥) مقدمة أوجز المسالك .

(٦) تدريب الراوى ١٠٩/١ .

أخطاء المستشرقين حول أبى العلاء المعرى

(الحلقة الرابعة الأخيرة)

بقلم : أديب العربية العلامة عبد العزيز الميمنى
تعريب : الأخ آفتاب عالم الندوى

١٤- يكتب فى الدائرة (١) عاش أبو العلاء اربعين سنة منعزلا بعد عودته من بغداد ، و يقول فى « الأفكار » إنه عاش خمسين سنة بعد عودته .

هذا تناقض فاحش منى به نكلسن ، والحقيقة أنه عاش بعد عودته منعزلا نحو ثمان و اربعين سنة و شهراً ، لأنه ذكر فى رسائله أنه غادر بغداد فى ٢٤ / رمضان ٤٠٠هـ فيرجى أنه وصل إلى معرة فى بداية ذى الحجة أو نهاية ذى القعدة حيث توفى فى ربيع الأول ٤٤٩هـ كما ذكر ذلك جميع المؤرخين من الصفدى و العباس ، أبو الفداء ، اليافعى ، ابن الأثير ، ابن الأنبارى ، السمعانى ، ياقوت ، ابن خلكان و السيوطى و غيرهم .

١٥- و ذكر فى « الآداب » : أنه مات وسنه ٨٤ سنة ، لانحتاج لتكذيب هذا القول إلى تصفح كتب المؤلفين المذكورين أعلاه ، بل يتعارض ذلك مع قول نكلسن نفسه فى « الدائرة » حيث يقول : ولد أبو العلاء فى ٣٦٣ ومات فى ٤٤٩هـ فاتضح بذلك أن عمره ٨٦ سنة و هذا هو الصواب كما ورد بوضوح فى « معجم الأدباء » و عاش ستا و ثمانين سنة ، و لا يغبن عن البال أن مرغليوت كتب عن

(١) م ، ص ٧٦ .

خطأ ، شيئاً ، بدل ، ستاً ، و هو تصحيف لا يغتفر ، يروى أبو البركات ابن الأنبارى (١) أن أبابكر الصولى لما روى الحديث ، من صام رمضان و اتبعه ، شيئاً ، من شوال الخ ، قال له محمد بن العباس أيها الشيخ اجعل هاتين النقطتين فوق و لكنه لم يفطن لذلك شيئاً فعاد و قال اجعل ستاً فصححه الصولى . فهل أرجو ذلك من مرغليوث ؟ فان عدد القلة تستعمل له فى العربية كلمة « نيف » فى عامة الأحوال و لا يستعمل له « شيئاً » .

١٦- يكتب فى الدائرة (٢) مكث أبو العلاء فى معرة إلى سنة ٤٠١هـ ثم عزم على المغادرة إلى بغداد ، يكفى لدحض هذا الخطأ الفاحش قول مرغليوث الذى تصدقه كتب التاريخ كلها أيضاً ، غادر أبو العلاء معرة و توجه إلى بغداد سنة ٣٩٨هـ و عاد إلى معرة فى سنة ٤٠٠هـ .

١٧- يدعى فى الدائرة (٣) أن شرح أبى العلاء « ضوء السقط » هو من أحسن شروح « السقط » و يقول : شرح التبريزى تلميذ أبى العلاء هو أيضاً من أحسن الشروح .

يكفى لتفنيد هذا القول وكشف عواره ما قاله (٤) مرغليوث من أن شرح التبريزى ليس هذا بمنفرد و لا جيد ، و يكفى له ما قاله ابن خلكان (٥) بأن شرح ابن سيد البطليوسى أحسن من شرح أبى العلاء نفسه .

يكتب فى الآداب (٦) أن ناصر خسرو وصل إلى معرة قبل وفاة أبى العلاء بعشر سنين و سبق أن كتب فى الدائرة (٧) أنه وصل إلى معرة قبل وفاته باحدى عشرة

(١) نزهة الأنبار ص ٣٤٣ . (٢) م ، ص ٧٥ .
(٣) م ، ص ١٦ . (٤) م ، ص ٣٥ .
(٥) ٢٦٥/١ . (٦) ٣٣٣ . (٧) ٧٦ .

سنة فى ٤٢٩هـ ، فى القولين تناقض ، لقد وصل ناصر خسرو إلى معرة فى عام ٤٣٨هـ كما تفيد رحلته (١) أى قبل عشر سنين وصرح الدكتور طه حسين فى ذكرى أبى العلاء أنه وصل إلى معرة فى ٤٢٨هـ أى قبل وفاة أبى العلاء بعشرين سنة ، و ذكر رقم هذه السنة فى « حساب الجمل » ثم استنبط انطلاقا من هذا الاساس الخاطئ نتائج و قضايا و سبح فى أجواء خياله ما شاء أن يسبح ، و لا غرابة فيه لأنه معترف بجهله باللغة الفارسية و لكن كيف نلتمس العذر لنكلسن الذى يعتبر أستاذاً من أستاذة الفارسية .

يكتب فى الأفكار (٢) : أن معظم رسائل أبى العلاء كتبت بعد عودته من بغداد ، فكرت فيه طويلا كما أرهق قبلى مرغليوث أيضاً فكره و لكننا لم نعد بشئ ، غير أن القطع بشىء فى تعيين العهد لتأليف معظم رسائله أمر مستحيل ، بيد أن رسائله بعد عودته و رسائله قبل عودته كلا كلتيهما هما متساويتان فى العدد .

١٨- كتب « رهن المحبسين » فى الأفكار و الدائرة حسب ما يلى ! Rahnul Mahbasyan و كان ينبغى أن يكتب كما يلى Rahnul Mahbisyan:

١٩- يزعم (٣) أنه كان عند وفاة أبيه فى الرابعة عشرة من عمره و وافقه صاحب ذكرى أبى العلاء أيضاً (٤) .

و لكن المنطق يقول أن نفترضه ابن خمس عشرة سنة اعتبارا بالسنة التى ولد فيها و هى ٣٦٣هـ فقد توفى والده فى ٣٧٧هـ كما ورد فى الخريدة والأدباء .

٢٠- يكتب فى الآداب أن أبا العلاء أقام بمعرة خمسة عشر عاما بعد ما عاد من الشام و إلى أن غادر إلى بغداد .

(١) طبعة برلين ص ١٤ ، ١٥ . (٢) - ٤٨ .
(٣) الأفكار ٤٥ . (٤) ٣١٣ .

و الأنسب أن تزاد تسعة أشهر بجانب ١٥ عاما أو ستة أشهر على الأقل ، راجعوا كتابنا لمزيد من التفاصيل .

٢١- ورد فى الآداب (١) أنه عاد من الشام إلى معرة و هو ابن عشرين سنة و لكن ذلك لم يتحقق لدى . بل بالعكس من ذلك يدل ما رواه ابن حجر من أنه بقى فى صنعاء مدة سنة لا يأكل اللحوم، يدل ذلك على أنه ظل يسيح ويتجول بعد العشرين من عمره أيضاً ، ولعل خطأ نكلسن يرجع إلى ما ذكره أبو العلاء من أنه لم يتتلمذ على أحد بعد العشرين من عمره ، و لكن هذا الاستنتاج غير صحيح لأنه يمكن أن يكون قد واصل السياحة بعد العشرين للبحث عن الكتب لا للتعلم و التلمذة .

٢٢- يترجم فى الآداب (٢) بيتا لأبى العلاء كما وقع فى اللزوم وهو كما يلى :

غدوت ابن وقتى ما تقضى نسيية و ما هو آت لا أحس له طمعا

فيقول : يحق لأبى العلاء أن يعتبر نفسه فريدا وحيدا فى أبناء عصره .

و لكن هذه الترجمة لا توافق ما قاله أبو العلاء فان أبا العلاء يرى أن الانسان إنما يقاس فى ضوء أوضاعه الراهنة و أما ما مضى أو ما سيستقبله فلا يمكن أن نقطع فيه بشئ ، و الدليل على ذلك الأبيات الآتية التى وردت فى اللزوم :

أنت من وقتك والماضى حديث كرى و لا حلاوة للباقى الذى غبرا
خذ الآن فيما نحن فيه و خليا غداً فهو لم يقدم وأمس فقد مرا

ولعل أبا العلاء أراد من « ابن الوقت » نفس ما أراده نذير أحمد عند ما أسمى أحد كتبه بـ « ابن الوقت » و لو نظر نكلسن إلى البيتين السالفين اللذين يتفقان فى المعنى لما تعرض لهذا الخطأ .

(١) ٣١٣ . (٢) ٣٢٤ .

الأخطاء المشتركة لمرغليوث و نكلسن :

٢- يكتب مرغليوث (١) كان أخوال أبى العلاء و أعمامه غير ملتزمين فى العقائد فتأثر بها أبو العلاء، وتدل القصيدة التى نقلها الصفوى على أنه لم يؤد الحج فى عهدهم .

و يقول نكلسن (٢) : لم يحج والده و لا أخواله و أعمامه الذين يعتبرهم أبو العلاء القدوة المثالية ، الأمر الذى يحمل أهمية خاصة فى صياغة معتقداته و أفكاره .

و لا يوجد برهان أقوى (٣) على العصبية التى تسيطر على الكاتبين من هذا القول ، فان مرغوليوث نفسه قد فند الحكاية التى وردت فى مناسبة الأبيات التالية مستهزءاً ، ساخراً ، و رفضها رفضاباتا .

قالوا هرمت و لم تطرق تهامة فى مشاة وفد و لا ركبان اجمالى
فقلت إنى ضرير و الذين لهم رأى رأوا غير فرض الحج أمثالى
ما حج جدى ولم يحجج أبى وأخى ولا ابن عمى و لم يعرف منى خالى
و حج عنهم قضاء بعد ما ارتحلوا قوم سيقضون عنى بعد ترحالى

وهنا يستشهد بجزء من هذا الواقع العظيم لأجل مصلحة رأها ، وما ذلك إلا عصبية لم يسبق إليها ، وهل يوجد مثيل أبشع و أشنع من هذه العصبية و الخيانة العلمية .

و الحقيقة أن هذه الرواية لا تمت إلى الواقع بصلة ما ولا تعتمد على أى دليل ، كما نفاه صاحب ذكرى أبى العلاء نفياً باتاً و « سر العالمين » للغزالى هو مرجع هذه الحكاية و هو ليس بتأليف الغزالى و لا أى عالم بل هو اختلاق من

(١) م ، ص ١٤ . (٢) الافكار ٤٥ . (٣) م ، ص ٤٣ .

جاهل أبله ، لا يعرف العربية إطلاقا ، كما صرح به العلامة شبلى النعمانى فى تأليفه « الغزالى » و قد ذكر فى هذا الكتاب (سر العالمين) أيضاً أن الغزالى يدعى أنه سمع بعض أبيات أنشدها له أبو العلاء ، و الواقع أنه ولد بعد وفاة المعرى بسنين ، ومما يزيد الطين بلة أن هذه الأبيات إنما هى لقائليها بشار و جرير وهما يسبقان أبا العلاء بثلاث مائة سنة .

و لا شك أن أبا العلاء لم يؤد الحج لعوائق و موانع ، كما أشار إليه فى الأبيات التالية من اللزوم :

أردت إلى الحجاز تحملا ... فعاقتك عنه عائقات الحواجز
من خوف بارئك امتطيت نجيبة ... عادت يسيرك مثل قوس البارى
فاذا وردت منى فغايات المنى ... ملقى جرائم فى الحياة كبار

لا يستطيع أن يقول من له ذوق أصيل إن أباء العلاء كان من منكرى الحج حقيقة .

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... عنى و ما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به ... و إن ذكرت بشر عندهم أذنوا

إنما كان كرهه وعداؤه لاولائك الحجاج الذين كانوا يزدادون شرا وشقاوة بعد عودتهم من الحج كما قال الشاعر :

أصبح الشيخ ماردا ... بعد ما حج و استلم

هذا و قد قرض أبو العلاء قصيدة لامية فى السقط (١) بلسان سائق الحاج تثير عزائم الضعفاء و تبعث فيهم الجراءة و الهمة لأن يتوجهوا إلى البيت العتيق عن طواعية النفس و بشاشة القلب ، و هى كما يلى :

و سريت تحت المدجنات ممارسا أهوالها
فى فتية تزجى إلى البيت الحرام نعالها

(١) ٢ ، ٣٢٩ .

تبغى بمكة حاجة ... قدر الغريز مآلها
حتى قضيت طوافها ... سبعا وزرت جبالها
و سمعت عند صباحها ... و مسائها أهلا لها
ترجو رضى الملك الذى ... منح الملوك جلالها

٢٣- يقول مرغليوث (١) ، قبل أبو العلاء تحدى القرآن و يقول نكلسن (٢) فى الآداب كان أبو العلاء يراوده الشك فيما أن القرآن كلام الله ولذا قبل تحدى النبى ﷺ و أعد كتابا فى معارضة القرآن الكريم الخ ، وقد أعاد هذه الفكرة الأستاذ براؤن فى كتابه « التاريخ الأدبى لايران » و الحقيقة أن هذه الفكرة الخاطئة المرفوضة إنما بثها فى أوربا كلها « جولدزيهر » بمقالة « ذ ، د ، م ، ج » .

و قد سبق أن تناولناها بالرد و التفنيد وكشف عوارها فى مقالة نشرتها مجله « معارف » فى عدد فبراير سنة ٢٥م ، و لكننا ننقل هنا شهادة لأبى العلاء نفسه باعجاز القرآن ، ظهرت بعد فراغه من تاليف « الفصول » بنحو عشر سنين فى ٣٢٤هـ « لقد أجمع كل ملحد و مهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد على أن الكتاب الذى جاء به النبى ﷺ من الله كتاب بهر بالاعجاز ولقى عدوه بالارجاز » (٣) .

٢٤ ، ٢٥ — يروى مرغليوث عن التاريخ الاسلامى أن أبا العلاء لما عاد من الشام سنة ٣٨٣ ، بدأ يحصل على ثلاثين دينار سنوياً من وقف لقومه بيد أن الذهبى يقول كما يلى : « له وقف يحصل منه فى العام نحو ثلاثين دينارا ----- واتفق أنه عورض فى الوقف المذكور من جهة أمير حلب فسافر إلى بغداد الخ » كتب نكلسن مثله فى مكانين (٤) ، و لكنه زاد فى الآداب (٥) « لم يكن له

(١) ٣٦٤ .
(٢) ٢١٨ .
(٣) الغفران ١٥٨ .
(٤) الأفكار ٤٦ و الدائرة ٧ .
(٥) ٣١٣ .

أى دخل سوى هذه الثلاثين دينارا » ، وكتب فى الأفكار : لعله كان له مصدر آخر للدخل سواء من التعليم أو غيره و بين هذين القولين تناقض فاضح ، ولكن ما هو أغرب من ذلك هو أنه يكتب فى « الافكار » (١) مرة ثانية : كان يستلم من تلامذته مبلغاً معقولا ، و قد استعمل الكاتب فى الاستشهاد الأول « لعل » و « شيئاً » وهما تعبيران مريضان بعيدان عن أسلوب البحث والتحقيق ، وفى الاستشهاد الثانى استعمل كلمة « معقول » فى مناسبتين فى كتاب واحد ، وقد اتبع فيه مرغليوث (٢) الذى يقول : ليس من المستبعد أن التلامذة كانوا لا يعودون إلى أوطانهم إلا بتقديم مكافأة جهم و تكريمهم لأساتذتهم مادياً ويقول فى مكان آخر : كان تعليم أبى العلاء موجها إلى تحصيل المال بحكم طبيعته التى فطر عليها ، و يكتب فى مكان آخر أيضاً : « و إن كان أبو العلاء ليردد أنه لم ينظم قصائده طلباً للمكافأة و الجائزة ثم يروى عن الدكتور ريو : « القصيدة الأولى من « السقط » يمدح فيها أبوالعلاء حفيد سيف الدولة سعيد الدولة » الخ وكأن مرغليوت حريص جد الحرص على أن يثبت بأن هذه القصيدة شهادة قاطعة على طمع أبى العلاء و كأنه يتقلب على الجمر لأن يبرهن على أن أبا العلاء كان من الشعراء الذين يرتزقون بالشعر و يتكسبون .

والواقع أن المبلغ المذكور أعلاه لم يكن إلا خمسة وعشرين دينارا ، وقد خصص معظمها لخادمه ، كما صرح به أبو العلاء (٣) و أنا أعارض الذهبى فيما يقول : إن هذا المبلغ الزهيد كان يحصل له بعد عودته من بغداد و ذلك لأنه يعترف

(١) ١٢٥ .
(٢) ٣٤ .
(٣) معجم الأدباء ١/٢٠١ .

بوضوح بأنه كان لديه ثروة (١) قبل مغادرته لبغداد ولا شك أن خمسة وعشرين دينارا لا تعد ثروة ، و لكنه من نسيج خيال مرغليوت ونكلسن أن أبا العلاء بدأ يتسلم هذا المبلغ الزهيد بعد مغادرته من الشام ، و لا تدل عبارة الذهبى على هذا المعنى أبداً ، بل يبدو أن هذا المبلغ كان يحصل له قبل هذه الرحلة أيضاً ، و أما تسلمه للاجرة من تلامذته فلا يقوله إلا من جهل عادات الشرق وأحوال أبى العلاء فهل كان أبو العلاء أستاذاً كمثلهما فى « كيمبردج » و « أوكسفورد » أو كان معلما جوالا يتجول على تعليم « عشاق » العلم العديدين ، بل كان يسدى إلى طلبته الخير ويحسن اليهم ، و يروى الذهبى أن أبا العلاء كان يعتذر إلى الطلبة الذين يأتون إليه من بعيد بأنه قليل البضاعة ، عديم الثروة و كان يتأسف على ذلك تأسفاً بالغا ، وإليكم بعض أبيات من اللزوم تشير إلى هذا المعنى وهى كما يلى :

يزورنى القوم هذا أرضه يمن ... من البلاد و هذا داره الطبس
قالوا سمعنا حديثا عنك قلت لهم ... لا يبعد الله الا معشرا لبسوا
أعاننا الله كل فى معيشة ... يلقى العناء فدرى فوقا دبس
ماذا تريدون لا مال تيسرلى ... فيستماح و لا علم فيقتبس
أتسألون جهولا أن يفيدكمو ... و تحلبون سفياً ضرعها يبس
أنا الشقى بأنى لا أطيق لكم ... معونة و صروف الدهر تحتبس

يروى القفطى أن تلامذة أبى العلاء أبدوا ذات مرة رغبة إلى حجب حلب ، حتى أحضره أبو العلاء فأكلوا جميعاً و قد خصصوا منه شيئاً لأبى العلاء ، لكنه

(١) شرح التنوير على سقط الزند ٢/١١٩ حيث يقول :
أثارنى عنكم أمران و الدة ... لم ألقها و ثراء عاد مسفوفا
أحيا هما الله عصر البين ثم قضى ... قبل الاياب إلى الفخرين أن موتا

جف و لم يأخذ منه أبو العلاء شيئاً ، إن هذه الحكاية لهى أوضح دليل على أن أبا العلاء إنما كان يعطى ويساعد الطلبة ، كذلك روى الذهبى فى تذكرة الحفاظ (١) عن تلميذ أبى العلاء الرشيد التبريزى أنه قال كنت اقرأ كتب الأدب على الخطيب البغدادى فى جامع دمشق، مرة جاء الخطيب إلى فى غرفتى و منحنى خمسة دنانير و طلب منى بأن اشترى منها الأقلام و كذلك منحنى مثله مرة أخرى .

عبر مرغليوث ونكلسن كلاهما عن الوقف بصندوق مال الوقف Trust Fund حيناً و بمعاش التقاعد (PENSION) حيناً آخر ، و الواقع أن أبا العلاء لم يكن يملك سوى أرض و مبانى فكانت الأرض تؤتى ثمارها سنوياً و المبانى تجلب له الأجرة ، كما تناولناه بالضبط والتحقيق فى كتابنا مدعماً بتصريحات أبى العلاء نفسه، ولا شك أن مثل هذا الدخل لا يعبر عنه بكلا اللفظين اطلاقاً .

و ما أبعد عن الواقع قوله إن أبا العلاء واصل تعليمه لكسب المال ، رغم أنه قد رفض هذا القول مراراً وتكراراً ، يقول الذهبى و غيره (١) إن أبا العلاء كان طموحاً عالى الهمة، لم يكن يحمل فى جيده منة أحد ، فانه لو أراد أن يرتزق بشعره و يلتمس به العيش لتوفرت له الرياسة الدنيوية وانهالت عليه الثروة الفائضة، ولا نحتاج إلى إيضاح أن أبا العلاء كانت حياته بكاملها قدوة ونموذجاً مثالياً للتقشف والقناعة، فكأن مرغليوث يريد أن ينظر إلى أبى العلاء من خلال العيون النهمة المادية لأوربا، ينظره فريسة الشره المطرد و النهامة الزائدة ، رغم أنه يقول بنفسه عن قصائد صباه فى مقدمة السقط : (٢) .

« و لم اطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طالباً للثواب و إنما كان ذلك على معنى الرياضة و امتحان السوس فالحمد لله الذى ستر بعفة من قدام

(١) م ، ١٢٩ . (٢) شرح التنوير على سقط الزند ص ٦ .

العيش و رزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوفر » .

فهل هما فاقا أبا العلاء صدقاً و أمانة ، أنا اعترف بأن « ريو » صدق فيما أفاد بأن القصيدة الأولى للسقط فى مدح سعيد الدولة، لكنه لو سرح هذا المدعى طرفه على عنوان نفس القصيدة التى فيها « ولم يكن من طلاب الفوائد » و ورد فى النسخ المطبوعة « من طلاب الرفد » فقوله بأن مدائحه لكسب المال، ليس بعد هذا التصريح إلا العناد و المكابرة و العصبية الجاهلية ، و إن البيت التالى الذى أنشده فى صباه ليؤكد ما نقول :

قنعت نخلت أن النجم دونى و سيان التقنع و الجهاد (١)

٢٦— يدعيان (٢) : أن أبا العلاء غادر إلى بغداد للبحث عن المعاش أو الوظيفة أو تجربة الحظ ، و لكن أبا العلاء نفى ذلك يوم كان فى بغداد و نفاه بعد عودته منها أيضاً حيث يقول :

سيطلبنى رزقى الذى لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ و إقبال
رحلت لم آت قرواشاً أزاوله ولا المهذب ابغى النيل تقويتا
والموت أحسن بالنفس التى ألفت غذا القناعة من أن تسأل القوتا
و كم ماجد فى سيف دجلة لم أشم له بارقاً و المرء كالمزن هطال
و إنى تيممت العراق لغيرما يتممه غيلان عند بلال

فالقراء لهم الخيار إما أن يصدقوا أبا العلاء أو يصدقوا مؤلفى سيرته الماديين ثم يزعم كلاهما أن أبا العلاء كان يخيب مقاصده وغاياته بمثل هذه الأبيات الانكارية، يا سبحان الله ! لعلهما قد شقا قلبه و لمساه بالبنان .

(١) شرح التنوير على سقط الزند ص ٦ .
(٢) م ، ٢١ ، الأفكار ٤٦ ، الآداب ٣١٣ .

٢٧- كلاهما يدعى (٢) أن أبا العلاء تحول نباتيا Vegetarian فرفض أكل اللحوم بعد عودته من بغداد، ويعارض ذلك تصريح أبى العلاء نفسه فانه يقول: « لما بلغت الثلاثين من عمرى صمت صوم الدهر و بدأت اقتصر فى طعامى على النبات يعنى تم ذلك فى ٣٩٣هـ قبل مغادرته لبغداد بخمس سنوات و نصف، مع أن عندنا شهادة قوية خارجية أيضاً وهى ما قاله ابن حجر أنه بقى فى صنعاء سنة لا يأكل اللحم، معنى ذلك أنه بقى فى صنعاء مدة سنة مجتنباً أكل اللحم، و قد أجمعوا على أنه لم يفارق زاوية عزلته قط بعد عودته من بغداد فلا محالة أن رحلته إلى صنعاء كانت قبل عودته من بغداد، أما ما يزعمون أن أفكاره المتشابهة بالبرهمية و الجينية قد نشأت بعد عودته من بغداد، فهذا خطأ تعرض له معظم المترجمين له، و يمكن أنه يكون قد تمسك بهذه النظريات بشدة بعد ما عاد من بغداد و قد وضع لحياته خطة عمل فى المستقبل.

٢٨- يزعمان (٢) أن أبا العلاء مر فى طريقه بحلب، ولكن المسافر نفسه لا يصدق ذلك فانه يقول: « ما نكبت حلب فى الابداء و الانكفاء إلا إلخ (٣)، و مما يبعث على العجب أن يقول ذلك ناشر رسائله و مترجمها.

٢٩- ورد فى رسائله رقم ٨ « نبذة كنبذة فنيق النجوم » يعنى عزلة كعزلة فحل النجوم، أخطأ فيه نكلسن و مرغليوث حيث ظنا عن خطأ أن « فنيق » نجم من النجوم (٤)، رغم أنه فى الواقع اسم للفحل من الابل، و بما

(١) م ٣٦٠٢، الآداب ٣١٥.
(٢) م ١٢١، الأفكار ١٤٦.
(٣) الرسائل ص ٢٩.
(٤) ترجمة الرسائل ص ٤٣ الأفكار ص ٤٧.

أن « سهيلا » بمعزل عن جميع النجوم لذا يعبر عنه بالفنيق بطريق المجاز، و يشهد بذلك أحد الأبيات التى ذكرها أبو على المرزوقى فى كتاب الأزمنة و هو كما يلى:

شآمية إلا سهيلا كأنه — فنيق غدا عن شوله وهو حافر

والآن نتصدى لعرض خطأ من أخطاء مرغليوث يختص به وقد فاتنا ذكره فيما سبق

٣٠- يزعم: (١) أن داعى الدعاة راسل أبا العلاء من مصر فى شأن أكل اللحم، فهذا ليس بصحيح، لأن داعى الدعاة يقول (٢): « فلما رمت بى المرامى إلى الشام و سمعت أن الشيخ وفقه الله تعالى . . إلخ » إن هذه العبارة بكاملها لا تترك أى مجال للشك، وقلد صاحب «الذكرى» مرغليوث تقليداً أعمى، راجعوا ذكرى أبى العلاء ص ٦٩.

وعجب على العجب أن ياقوت الحموى قد روى عن « فلك المعالى (٣) » أن بعض الناس يعدون الموت عدواناً من الله و أبو العلاء منهم، ولذا سلط الله عليه داعى الدعاة فجرت بينهما مراسلات و دارت مناظرات مما أدى إلى أمر داعى الدعاة بأن يؤتى بأبى العلاء إلى حلب و يخير بين حياة يزينها الاسلام الصحيح و تذهب بأثقالها الثروة الموفورة أو قتل يريحه و يريح الدين من شره، فلما علم أبو العلاء ذلك شرب السم فمات حتف أنفه.

فلك المعانى تاليف لأبى يعلى بن الهبارية الذى يروى عنه ياقوت كثيراً

(١) م ٣٩ ج ، ر ، الف ، س رقم الحاشية ٣ ص ٣١٤ ، ١٩٠٢م.
(٢) الأدباء.
(٣) الأدباء ١/١٩٤.

راجعوا « كشف الظنون » ونسخة خطية له موجودة فى مكتبة « أياصوفية قسطنطينية » راجعوا دفترها برقم ٤١٥٧ المطبوع بسنة ١٣١٤ ، وكان ابن الهبارية شاعراً فحاشاً بذاء لم يسلم من معرة لسانه و وصمة بنانه أحد من أعيان عصره (١) فوقوع أبى العلاء فريسة هجائه لهو دليل على فضله وعلوه .

و إذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

قد شرحنا ذلك فى كتابنا و رفضنا هذا القول بقوة ، أما القول بأن أبا العلاء شرب السم ومات فهو قول مرفوض لم يذكره مؤرخ ، وابن الهبارية لا يوثق به فهذا القول أيضاً مرفوض .

والقصة المذكورة أعلاه يرويها الدكتور طه حسين عن « غرس النعمة » فيقول :

« ومن الواضح أن ليس لهذه الرواية ظل من الصحة ، لأن موت أبى العلاء معروف لذلك أسرع ياقوت إلى رفض الرواية و تكذيبها ، والعجب أن المستشرق الفرنسى « سلامون » لم يفهم ما كتب ياقوت فظن أنه صاحب الرواية و اجتهد فى الرد عليه ، ولوأنه فطن لما كتب ياقوب لأراح نفسه من عناء كثير » (٢) .

و أنا أقول للدكتور : نسب سلامون عن خطأ رواية القصة إلى ياقوت ، لكنك ياليت لو راجعت نفسك ، فقد ارتكبت نفس الفرية و نسبت الرواية إلى غرس النعمة ، رغم أنه منها براء ، وسيتجلى لكم ما أقول لو أعدتم النظر فى معجم الأدباء ، و لا يخفين عن البال أن فلك المعانى هو تاليف ابن الهبارية بدل غرس النعمة ، فهل تسمحون لى بأن أنشد هنا بيتاً لصاحبنا !

---

(١) راجع ابن خلكان .

(٢) ذكرى أبى العلاء، ص ٢٢٥ .

و بصير الأقوام مثلى أعمى فهلموا فى حندس تتصادم

لم يكن يحلو لى أن أطعن فى الرجال شأن الآخرين كسباً للتأييد و تمهيداً للطريق ، و لكنى رأيت أن الباحثين إنما سلطوا الضوء على الجوانب المشرقة من إنجازات المستشرقين و خدماتهم على حساب الجوانب الأخرى من الضعف وعدم الحياد ، و السلبيات التى تطرقت إلى أعمالهم و إنتاجاتهم ، فكانت السنة الالهية تقتضى أن لا يظل هذا الجانب مهملا غير مطروق ، على أننى أعرف جيداً أن الانسان لا يمكن أن يسلم أى عمله من العيب و الخلل ، فلا أبرىء نفسى و لا أزكيها على الله ، غير أنه يبعث على الارتياح ويثلج الصدر أننى تحاشيت من الدعاوى ما استطعت و أتيت بما سيكبح - لو شاء الله - شيئاً كثيراً من جماح المجانين المزعومين فى بلادنا من الباحثين المستشرقين الذين كثيراً ما يتجرأون على نسبة العصمة إلى أنفسهم .

هذا ، و يحتوى البحث على كثير من آراء قيمة نادرة وملاحظات موضوعية بديعة فأرجو من الباحثين عن الحق أنهم سيضعون فوائده الحقيقية نصب أعينهم .

ألا ليقل من شاء ما شاء إنما يلام الفتى فيما استطاع من الأمر

أكبر

قضية المسلمين دراسة شاملة، وعرض موضوعى

(الحلقة الثانية)

الأستاذ مصطفى محمد الطحان الكويت

ثانيا : الاستعمار و التبشير (١) :

و إذا كان الاحتلال العسكرى هو وسيلة الغرب فى قهر الخصوم و احتلال بلادهم، فان التبشير بوسائله المختلفة هو الوسيلة الأساسية للصليبية فى التمهيد للعمل العسكرى قبل قيامه و تثبيته بعد نجاحه .. و كثير من البلاد الاسلامية فتحها الغرب بعد أن مهد المبشرون الطريق بواسطة الشركات التجارية أو المعاهد التعليمية أو النشر و الصحافة و وسائل الاعلام .

و إذا كان الاسلام يأمر محاربيه بأن لا يقتلوا عابداً .. و لا يؤذوا ذمياً .. و لا يكرهوا إنساناً فى دينه .. فان للنصرانية رأيا آخر .. فالمسلمون جنس ملعون يجب القضاء عليه و تخليص البشرية من شروره .. » و محمد نفسه نشأ فى بيئة وثنية فى عائلة قليلة الشأن .. وقد خطط لنفسه ليمسك مفاتيح القوة و السلطان .. وقد نالهما بما زعمه من الوحى الذى يتنزل بخبر السماء .. ! وأنه نشر دينه بالعنف و بالسماح لغيره من الناس بأن يمارسوا الشهوات التى كان غارقاً فيها .. » (٢) .

(١) أخذت بعض المعلومات عن التبشير من الفصل الثالث من كتاب الاسلام المجاهد (جودفرى هـ. جانسن) الصادر بالانجليزية .

(٢) كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً .

و قد تطور مفهوم التبشير عند القائمين عليه و فى نفوس المبشرين : فعندما انهزمت الصليبيـــة أمام المسلمين عسكرياً ، انهزمت أمام الاسلام روحياً و نفسياً و حضارياً .. و أنى لها الصمود أمام دين سماوى حيوى .. وهى فى تلكم الأيام ليست أكثر من تجميع لعقائد وثنية ممزوجة ببعض التعاليم المسيحية ، الأمر الذى أفقدها حيويتها و تماسكها و جديتها .. فكان التبشير فى هذه المرحلة عملية دفاع عن النفس فى المقام الأول .

أما بعد القرن التاسع عشر، فعند ما انهارت معظم الأقطار الاسلامية تحت مطارق الغزو الصليبى ، فقد صار للتبشير هدف آخر و هو التمهيد للغزو العسكرى ثم التمكين له .. ثم تطور الهدف بعد ذاك، فصار المبشرون يعتقدون أن الوقت قد حان لكى يستطيعوا النفاذ إلى قلب الاسلام وتخليص البشرية من هذا الدين و دمج الشعوب الاسلامية فى المنظومة الحضارية الأوربية .. ولسنا ندرى ما إذا كان المبشرون أنفسهم مؤمنين بهذا الفعل .. فقد كانت النصرانية لا تقنع أحداً .. ولكننا ندرى أن العسكريين الذين يمهدون السبيل للمبشرين كانوا دعاة دماء منحطين سلوكياً و دينياً يعادون الاسلام ولا يحترمون النصرانية .. دافعهم الحقد قبل أى شئ آخر .. كان التلاحم واضحاً بين النشاط التبشيرى وبين حركة الجيوش الغازية :

❁ ففى اندونيسيا على وجه الخصوص ، كان من السهل ملاحظة هذا التلاحم . كانت شركة الهند الشرقية الهولندية هى التى تحدد الأماكن التى تحتاج للمبشرين ، و اللغات التى تستخدم فى أداء الصلوات و الطقوس الدينية .. و مقدار الرواتب التى تدفع لهم ، كما ساعدت الحكومة الهولندية فى افتتاح المدارس و بناء المستشفيات كوسيلة لكسب المزيد من الداخلين فى المسيحية .

و فى عام ١٨٥٢ فرضت الحكومة الهولندية قيوداً على الحجاج الذاهبين إلى

مكة ، و فرضت عليها ضريبة مرتفعة .. و كانت بذلك تنفذ نصيحة العالم الهولندى (الذى ادعى الاسلام) كريستيان سنوك هورجرونج .. و فى العام نفسه أصدرت قانوناً يحظر على مدرسى الدين الاسلامى القيام بأعمالهم بدون تصريح رسمى من الدولة كما منعت الحكومة الهولندية الموظفين المسلمين من الخدمة فى المناطق غير الاسلامية .. و سياسة العزل هذه طبقتها فيما بعد جميع الدول الاستعمارية .. طبقتها فرنسا عندما عزلت مناطق البربر فى الجزائر .. و طبقتها انجلترا عندما حالت دون الشماليين من دخول جنوب السودان .. و دون المصريين من دخول سيناء، هكذا .. كان إبراهام كويبا رئيس وزراء هولندا عام ١٩٠١ يردد عن قناعة « لقد وهبنا الله اندونيسيا من أجل سيادة الدين المسيحى .. » .

❁ أما فرنسا، فقد كانت سياستها التبشيرية مزدوجة الهدف: أن تلغى الاسلام من شمال إفريقيا ، و أن يكون المبشرون رسلا للحضارة الفرنسية كذلك .. من هنا فقد أعلن مستشار الملك الفرنسى شارل العاشر « إن فتح الجزائر سيكون نصراً كبيراً للمسيحية . . . » وكذا أعلنت الحكومة البريطانية أنه « سيكون ذا فائدة كبرى لكل المسيحية » . ودعا البابا إلى صلاة عامة لنصرة السلاح الفرنسى، و ترددت فى أنحاء أوروبا ترانيم العيد لدى سماع أنباء الانتصار . كان الأسقف لافيجرى يقول بلا مواربة « إن الجزائر هى ميناء مفتوح على القارة البربرية التى يسكنها مائتا مليون إفريقى ، وقد شاءت قدرة الرب أن تمنح فرنسا فرصة لتجعل من الجزائر مهداً لأكبر و أعظم أمة مسيحية . . . » و كان يرى أن اعتناق المسيحية هو الطريق الوحيد لاخراج المسلمين من الهمجية ، وأن تلك هى السياسة الحكيمة و الانسانية التى يجب أن تتبعها فرنسا فى الجزائر » .

❁ و فى تونس دعا أسقف قرطاج سنة ١٩٣٠م إلى مؤتمر كنسى جاء إليه المشاركون يرتدون ملابس جنود الحملات الصليبية .

❁ و فى فلسطين أرادت كل جماعة تبشيرية أن تكون ممثلة فى الأرض المقدسة . فكانت النتيجة صورة غريبة معقدة من الرتب والنظم مكونة من حوالى ٢٢ نظاماً تابعاً للكنيسة الكاثوليكية فى روما ، ونفس العدد تقريباً من الكنائس البروتستانتية ..

❁ و فى الشام أيد الفرنسيون بدون تحفظ الكنيسة المارونية المحلية فى لبنان .. ثم تعززت هذه العلاقة عندما عينت فرنسا وصية على سوريا و لبنان بعد الحرب العالمية الأولى . وظلت فرنسا تنفخ فى القوة العددية للمارونيين لدرجة أصبح معها مقبولا بعد الاستقلال أن يكون الرئيس اللبنانى دائماً من الموارنة . و أصبحت العلاقات وثيقة بين الطرفين إلى درجة أنهم لم يعودوا يتصورون أنفسهم عرباً .. بل أتباعاً لفرنسا الأم الحنون ..

❁ و فى مصر لعب التبشير دوراً رئيسيا فى صياغة السياسات البريطانية فى مجالات الصحافة و التعليم و المدارس و المستشفيات .. و لقد كان للاقباط - وهم لا يتجاوزون ٣٪ من سكان مصر - دور يتجاوز دور المسلمين تحت الادارة الاستعمارية .

❁ ويعتبر السودان مثالا واضحاً للارتباط الوثيق بين التبشير المسيحى والسياسة الاستعمارية الأوروبية .. و لننظر بتأن كيف أقام البريطانيون - بمساعدة نشطة من المبشرين - دويلة مسيحية معادية للاسلام فى جنوب السودان . و تكمن أهمية جنوب السودان فى حقيقة أنه يقترب كثيراً من منابع النيل فى مناطق يسهل منها التحكم فى مجراه وإلحاق الضرر الشديد بالسدود ونظام الرى فى الشمال

و خاصة مصر التى تعتبر النيل شريان حياتها ، فعندما استولى الانكليز على إدارة السودان ، بعد أن هزم اللورد كيتشنر الدولة المهدية التى حكمت السودان على مدى خمسة عشر عاماً بعد مصرع الجنرال المسيحى (جوردون) على أيدى الجماهير المهدية ، كانت ترى هذه الادارة أن خوفها ليس فى المشاعر المؤيدة لأنصار المهدى ، و إنما الخوف كل الخوف من الشعور الاسلامى فى السودان ، وأنه على الادارة البريطانية أن تستأنف العمل التبشيرى الذى بدأه جوردون حتى يصبح السودان حلقة فى سلسة الأعمال التبشيرية من رأس الرجاء الصالح و حتى القاهرة .. لتكون بذلك استكمالا لخطة رودوس التى تقضى بوجود طريق بريطانى مفتوح بين هذه النقاط فى القارة الافريقية .. و أن أى تقصير فى هذا الأمر يعتبر خيانة لروح البطل المسيحى جوردون .. !

بدأت بريطانيا تطبق ما سمى بسياسة الجنوب منذ عام ١٩١٧ ، فصدرت الأوامر إلى القوات الشمالية التى تتكون بأكملها من المسلمين بأن تغادر الجنوب لكى تحل محلها قوات محلية . و فى سنة ١٩٢٢م أعلنت مناطق الجنوب محافظات يمنع دخولها إلا باذن خاص ! ومنعت اللغة العربية و أحيت اللهجات المحلية . وفى سنة ١٩٣٠م صدرت مذكرة حكومية رسمية تحدد الخطوط العريضة للسياسة فى جنوب السودان كما يلى .

- إبعاد جميع موظفى الادارة الشماليين و غيرهم من الكتبة و الفنيين .
- التوسع فى استخدام اللغة الانجليزية .
- بناء مجتمعات قبلية أو إقليمية ذات اكتفاء ذاتى .
- طرد التجار من أبناء الشمال .
- إيجاد حزام من الأرض لا يسكنه أحد بين قبائل الشمال و الجنوب .

- إيقاف الزيجات بين الشماليين و الجنوبيين .
- منع بيع الملابس العربية .
- حظر على المسلمين الجنوبيين أن يؤدوا شعائر دينهم فى الأماكن العامة .

و هكذا اكتملت بنية الدويلة المسيحية فى الجنوب .

- فى غرب إفريقيا كانت مهمة التبشير ، وبخاصة على طول ساحل الأطلسى ، أسهل بكثير من أى عمل قاموا به ، كانت مهمة المبشرين تتلخص فى إقامة المستوطنات على الساحل ثم النفاذ بسرعة إلى الأراضى الداخلية لمقاومة الموجة الاسلامية القادمة من الشمال .

و لقد تطورت مؤسسات التبشير و تعددت أهدافها و وسائلها و مصادر تمويلها و أيقنت أنها :

- و إن لم تحول سوى أعداد قلية من المسلمين إلى النصرانية إلا أنها و كما قال كبيرها (زويمر) فى المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى القدس :

« لا تسألونى كم مسلماً نصرت .. و لكن اسألونى كم مسلماً يعمل اليوم ضد الاسلام » و بالفعل فعن طريق مؤسساتهم التعليمية استطاعوا أن ينشئوا جيلا يعمل ضد التصورات الاسلامية و الشخصية الاسلامية للفرد و المجتمع ..

- كما أنهم نجحوا فى إيجاد بؤر حاقدة على الاسلام تثور بين الحين والآخر فلا تترك فرصة لتقدم البلد و استقراره . وما حرب بيافرا فى نيجيريا ، وجنوب السودان ضد شماله ، و الحروب فى الهند و بورما و إندونيسيا و لبنان إلا مثالا لما فعله التبشير فى بلاد المسلمين .

دراسة خاصة بالأدب المخضرم :

عبد الله بن رواحة الأنصارى

سعيد الأعظمى الندوى

دور عبد الله بن رواحة فى إنقاذ صفوان بن المعطل :

و قد فات أن نذكر دور عبد الله بن رواحة بعد عودة القوم من غزوة المريسيع فى إنقاذ صفوان بن المعطل السلمى حينما قال حسان بن ثابت شعراً عرض فيه بصفوان، وكان قد احتمل أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها على بعيره عائداً من الغزوة ، و هذا مطلع القصيدة :

أمسى الجلابيب قد عزوا و قد كثروا و ابن الفريعة أمسى بيضة البلد

و كان صفوان المعطل قد نذر لئن برأه الله تعالى ليضربن حسان ، فلما برأه الله وسمع تعريض حسان به فى القصيدة المذكور مطلعها (١) ضربه بالسيف، و هنالك وثب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان وجمع يديه إلى عنقه بحبل ثم انطلق به إلى بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال : ما هذا ؟ قال : أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ، و الله ما أراه إلا قد قتله ، فقال له عبد الله بن رواحة : هل علم رسول الله ﷺ بشىء مما صنعت ، قال : لا والله ، قال : لقد اجترأت ، أطلق الرجل فأطلقه، ثم أتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له (٢) .

(١) اقرأ القصيدة بكاملها فى حديثنا عن حسان بن ثابت الأنصارى فى فصل : (غزوة بنى المصطلق و حسان) .

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام ، غزوة بنى المصطلق .

سرية عبد الله بن رواحة :

و فى شوال عام ستة أرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام اليهودى بخيبر ، و كان أسير هذا قد تآمر مع اليهود ضد رسول الله ﷺ ، فقام فيهم يحضهم على القتال ، و توجه إلى غطفان فجمعها لكى يسير بهم إلى المدينة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب الناس فانتدب له ثلاثون رجلا ، و استعمل عليهم عبد الله بن رواحة رضى الله عنه .

و قد تحدث بخبر هذه السرية تقى الدين أحمد بن على المقريزى فى كتابه ، « إمتاع الأسماع » يقول :

« ثم كانت سرية أميرها عبد الله بن رواحة إلى أسير بن زارم (١) بخيبر ، و كان من يهود ، فى شوال سنة ست ، و كان قد بعثه رسول الله ﷺ قبل ذلك فى رمضان فى ثلاثة نفر ينظر إلى خيبر و ما تكلم به يهود ، فوعى ذلك وعاد بعد إقامة ثلاثة أيام ، فقدم لليال بقين منه ، فأخبر رسول الله ﷺ بما ندبه إليه ، و كان أسير قد تأمر على يهود بعد أبى رافع ، فقام فيهم يريد حرب رسول الله ﷺ ، وسار فى غطفان فجمعها ليسير إلى المدينة ، فقدم بخبره خارجة بن حثيل الأشجعى (٢) ، فندب رسول الله ﷺ الناس فانتدب له ثلاثون رجلا ، و استعمل عليهم عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، فقدموا خيبر ، وبعثوا إلى

(١) و فى ابن هشام ج ٢ ص ٩٨٠ « اليسير بن رزام » و « رازم » أيضاً .

(٢) خارجة بن حثيل . لم أجد له ترجمة و لا ذكرا ، و لا رأيت أحداً من أصحاب السير ذكره فى خبر هذه السرية ، و أخشى أن يكون هو خارجة ابن الحمير الأشجعى : ذكره ابن هشام فيمن شهد بدراً ج ١ ص ٥٠٠ ، و ترجم له صاحب أسد الغابة ، و ابن حجر فى الاصابة و قال : « هو حارثة بن حمير الأشجعى » وترجم له فيه .

أسير فأمنهم حتى يأتوه (١) فيما جاءوا فيه ، فأتوه و قالوا له : إن رسول الله بعثنا إليك أن تخرج إليه فيستعملك على خيبر و يحسن إليك ، فطمع فى ذلك ، و خرج فى ثلاثين من يهود ، ثم ندم فى أثناء الطريق حتى عرف ذلك منه ، وهم بعبد الله بن أنيس — و كان فيمن خرج مع ابن رواحة — فقطن عبد الله بغدره و بادره ليقتله ، فشجه أسير ثم قتل ، و مالوا على أصحابه فقتلوهم كلهم ، إلا رجلا واحداً فر منهم ، و لم يصب أحد من المسلمين ، و قدموا المدينة - وقد خرج لرسول الله ﷺ يتحسب (٢) أخبارهم - فحدثوه الحديث ، فقال : نجاكم الله من القوم الظالمين ، ونفث فى شجة عبد الله بن أنيس فلم تقح (٣) بعد ذلك و لم تؤذه ، و كان العظم قد نقل (٤) ومسح على وجهه و دعا له ، و قطع له قطعة من عصاه فقال : أمسك هذه علامة بينى و بينك يوم القيامة أعرفك بها ، فانك تأتى يوم القيامة متخصرا (٥) فجعلت معه فى قبره تلى جلده ، و يروى أن النبى ﷺ كان قد قال له : يا عبد الله ! لا أرى أسير بن زارم ! أى أقتله (٦) ،

عبد الله بن رواحة يخرص النخل فى خيبر :

وتم لرسول الله ﷺ فتح خيبر فى عام سبعة من الهجرة ، و كانت خيبر مما أفاء الله عزوجل على رسوله ﷺ ،

(١) فى الأصل : « يأتونه » .
(٢) تحسب الخبر واحتسبه : تطلبه وتحسسه وتعرفه .
(٣) فى الأصل : « تقح » ، وفاحت الشجة : نفحت بالدم .
(٤) نقلت الضربة العظم : كسرته حتى يخرج منه فراش العظام ، و هى قشور تكون العظم دون اللحم ، وتسمى هذه الضربة ، المنقلة .
(٥) أى يحمل المخصرة وهى العصا .
(٦) إمتاع الأسماع ص ٢٧٠ — ٢٧٢ .

خمسها رسول الله ﷺ وقسمها بين المسلمين ، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال ، فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها ، و تكون ثمارها بيننا وبينكم ، و أقركم ما أقركم الله ، فقبلوا فكانوا على ذلك يعملونها ، وكان رسول الله ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم ثمرها و يعدل عليهم فى الخرص . . فاذا قالوا : تعديت علينا ، قال : إن شئتم فلكم ، و إن شئتم فلنا ، فيقول يهود ، بهذا قامت السماوات و الأرض .

وخرص عليهم عبد الله بن رواحة عاماً واحداً فقط ، و استشهد بعد ذلك فى مؤتة ، فكان جبار بن صخر بن أمية بن خنساء أخو بنى سلمة يخرص عليهم بعد ابن رواحة (١) .

عبد الله بن رواحة فى عمرة القضاء :

وتسمى هذه العمرة ، عمرة القضية ، وعمرة الصلح ، و عمرة القصاص ، وذلك أن ذالقعدة لما أهل فى سنة سبع أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم ، و أن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف من أهلها أحد وهو حى ، و خرج سوى أهل الحديبية رجال عماراً ، و كان من بينهم عبد الله بن رواحة .

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التى تطلع على الحجون ، وقد ركب القصواء ، و أصحابه حوله متوشحو السيوف يلبون ، و عبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته ، فلم يزل عليه الصلاة و السلام يلبى حتى استلم الركن ، و قيل : لم يقطع التلبية حتى جاء عروش مكة (٢) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣٦٩ .
(٢) راجع إمتاع الأسماع ، عمرة القضاء .

ابن رواحة يرتجز بين يدى رسول الله ﷺ : أخرج أبو يعلى بسند حسن عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء و ابن رواحة بين يديه وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله و يذهل الخليل عن خليله

فقال عمر رضى الله عنه : يا ابن رواحة أفى حرم الله وبين يدى رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر؟ فقال : خل عنه يا عمر، فو الذى نفسى بيده، لكلامه أشد عليهم من وقع النبل (١) .

رسول الله ﷺ يعلم ابن رواحة دعاءه فى الطواف : يقول المقريزى : وقد تحدثت قريش أن المسلمين فى جهد، و وقف منهم جماعات عند دار الندوة، فاضطبع (٢) عليه السلام بردائه ، و أخرج عضده اليمنى ، ثم قال : رحم الله امرءا أراهم اليوم قوة ! فلما أنتهى إلى البيت - و هو على راحلته ، و ابن رواحة آخذ بزمامها ، وقد صف له المسلمون - دنا من الركن فاستلمه بمحجنه (٣) و هو مضطبع بثوبه ، و هرول هو و المسلمون فى الثلاثة الأشواط الأول (٤) و كان

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الرابع ، و الطبقات ٣ / ٨ وقد ذكرنا هذا الكلام فى مبدأ الحديث عن ابن رواحة .
(٢) اضطبع : هو أن يدخل الطائف ببيت الله الحرام رداءه من تحت إبطه ويغطى به الأيسر من جهتى صدره وظهره .
(٣) المحجن : عصا معقفة الرأس كالصولجان، و فى الأصل : «حتى دنا . . .»
(٤) هرول : أسرع سيراً بين المشى و العدو ، و الشوط : المرة الواحدة من الطواف بالكعبة ، وجمعه أشواط .

ابن رواحة يرتجز (١) فى طوافه ، و هو آخذ بزمام الناقة ، فقال عليه السلام : إيها (٢) يا ابن رواحة ! قل : لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ، ونصر عبده ، و أعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ! فقالها الناس، فلما قضى طوافه، خرج (٣) إلى الصفا فسعى على راحلته ، و المسلمون يسترونه من أهل مكة أن يرميه أحد منهم أو يصيبه بشئ ، و وقف عند فراغه قريباً من المروة (٤) .

غزوة مؤتة ، و عبد الله بن رواحة : يقول المقريزى : «ثم كانت غزوة مؤتة من عمل البلقاء بالشام دون دمشق ، (و هى بضم أوله ، و إسكان ثانيه ، بعده تاء معجمة باثنتين من فوقها) كانت فى جمادى الأولى ، وسبب ذلك أن الحارث ابن عمير الأزدى لما نزل مؤتة بكتاب رسول الله ﷺ إلى صاحب بصرى ، أخذه شرحبيل بن عمرو الغسانى و ضرب عنقه فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وندب الناس ، فأسرعوا و عسكروا بالجرف ، ولم يبين لهم الأمر (٥) فلما صلى الظهر جلس فى أصحابه وقال : زيد بن حارثة أمير الناس، فان قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبى طالب، فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فان أصيب عبد الله ابن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه (٦) عليهم ، وعقد لواء أبيض

(١) ارتجز : ترنم بالرجز من الشعر .
(٢) إذا قلت للرجل : « إيه حدثنا » فأنت تستزيده من الحديث ، فان قلت له : « إيهاً » بالنصب ، فانما تأمره بالانقطاع و السكوت .
(٣) فى الأصل : « و خرج » .
(٤) إمتاع الأسماع للمقريزى ص/ ٣٣٨ .
(٥) فى الأصل : « الأمراء » .
(٦) فى الأصل : « فليجعلوه » .

و دفعه إلى زيد بن حارثة فودع الناس الأمراء ، و خرج معهم إلى مؤتة ثلاثة آلاف ، وجعل المسلمون ينادون : دفع الله عنكم و ردكم صالحين غانمين .

وداع جيش موتة و وصيته الأمراء : وشيعهم رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع ، ثم وقف وهم حوله، وقال : أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا بسم الله فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا و لا تقتلوا وليداً ، و إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيهن ما أجابوك إليها ، فاقبل منهم و أكفف عنهم : أدعهم إلى الدخول فى الاسلام، فان فعلوا فاقبل منهم و أكفف عنهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فان فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، و عليهم ما على المهاجرين ، و إن دخلوا فى الاسلام و اختاروا دارهم ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله، ولا يكون لهم فى الفىء ولا فى الغنيمة شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فان فعلوا فاقبل منهم و أكفف عنهم ، فان أبوا فاستعن بالله و قاتلهم .

و إن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فانك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا ؟ و إن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تجعل لهم ذمة رسوله ، ولكن اجعل لهم ذمتك و ذمة أبيك و ذمة أصحابك ، فانكم إن تخفروا (١) ذمتكم و ذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله و ذمة رسوله .

(١) أخفر الذمة : نقضها ، و لم يوف بها ، و لم يتمها ، و أزال خفارتها : أى أمانها و ذمامها .

وستجدون رجالا فى الصوامع معتزلين للناس ، فلا تتعرضوا لهم ، وستجدون آخرين فى رءوسهم مفاحص (١) فاقلعوها بالسيوف ، لا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً (٢) ، ولا كبيراً فانياً ، ولا تغرقن نخلا ، ولا تقلعن شجراً ، ولا تهدموا بيتاً .

من خبر عبد الله بن رواحة : و قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ! مرنى بشىء أحفظه عنك ، قال : إنك قادم غداً بلداً ، السجود فيه قليل فأكثر السجود ، قال : زدنى يا رسول الله ، قال : أذكر الله ، فانه عون لك على ما تطلب (٣) ، فقام من عنده ، حتى إذا مضى ذاهباً رجع . فقال : يا رسول الله ، إن الله وتر يحب الوتر (٤) ! فقال : يا ابن رواحة ، ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشراً أن تحسن واحدة ، فقال : لا أسألك عن شىء بعدها .

ومضى المسلمون ، وقد أمرهم رسول الله ﷺ أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير ، وسمع العدو بمسيرهم ، فجمعوا لهم ، فقام فيهم رجل من الأزد يقال

(١) مفاحص جمع مفحص : و هو كالأخوص ، حيث تجثم القطا و تفرخ ، ومعنى الحديث أن الشيطان قد عشش فى رؤوس هؤلاء وفرخ ، فجعل له فيها مفاحص القطا و الطير ، فاستوطن فيهم ، فألزمهم شدة الغى ، و الانهماك فى الشر .

(٢) الضرع و الضارع : الصغير السن الضعيف الضاوى ، يذل من ضعفه ، و لا يدفع عن نفسه .

(٣) فى الأصل : « تطالب » ، ولا بأس بها .

(٤) الوتر (بكسر الواو وفتحها) : الفرد الأحد ، و كان ابن رواحة كما ترى سأل رسول الله شفعاً (أى سؤالين) ، فأراد أن يوتر سؤاله ، فيجعله فرداً غير شفع .

له شرحبيل (بن عمرو الغسانى) (١) ، وقدم الطلائع أمامة (٢) ، وبعث أخاه سدوس بن عمرو فى خمسين ، فلقوا المسلمين بوادى القرى فقاتلوه وقتلوه ، ونزلوا معان (من أرض الشام) (٣) فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من البلقاء ، فى مائة ألف من الروم ، ومعه من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام مائة ألف ، عليهم رجل من بلى يقال له مالك .

عبد الله بن رواحة يشجع المسلمين : فأقاموا ليلتين ، و أرادوا أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ليردهم أو يزيدهم رجالا ، فشجعهم عبد الله بن رواحة وقال : و الله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، و لا بكثرة سلاح ، و لا بكثرة خيول ، إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ! انطلقوا ، و الله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، و يوم أحد فرس واحد ! فانما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور عليهم ، فذلك ما وعدنا الله و وعد نبينا ، و ليس لوعده خلف ، و إما الشهادة ، فنلحق بالاخوان نرافقهم فى الجنان ! فشجع الناس ومضوا إلى مؤتة ، فرأوا المشركين ومعهم ما لا قبل لهم به من العدد ، والسلاح ، والكراع ، والديباج ، و الحرير ، و الذهب ، قال أبو هريرة : و قد شهدت ذلك فبرق بصرى (٤) ، فقال لى ثابت ابن أقرم (٥) : يا أبا هريرة ! مالك ؟ كأنك ترى جموعاً كثيرة ! قلت : نعم ! قال : لم تشهدنا ببدر ! إنا لم ننصر بالكثرة !

(١) زيادة للايضاح فقط .
(٢) فى الأصل : « أو قدم الطلا مع أمامة » .
(٣) زيادة للبيان .
(٤) برق البصر : دهش فلم يبصر ، وتحير فلم يطرف ، من فزع و حيرة .
(٥) فى الأصل : « بن أقوم » .

وقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم : فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل وقاتل الناس معه ، و المسلمون على صفوفهم ، و على الميمنة قطبة بن قتادة السدوسى ، و على الميسرة عباية (١) بن مالك ، فقتل زيد طعناً بالرماح .

ثم أخذه جعفر فنزل عن فرسه فعرقبها (٢) ، ثم قاتل حتى قتل : ضربه رجل من الروم فقطعه بنصفين ، فوقع أحد نصفيه فى كرم ، فوجد فى نصفه بضع و ثلاثون جرحاً ، وقيل : وجد - مما قبل يديه (٣) فيما بين منكبيه - اثنتان و سبعون (٤) ضربة بسيف أو طعنة برمح ، و وجد به طعنة قد أنفذته .

مقتل ابن رواحة : ثم أخذ اللواء بعده عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل ، وسقط اللواء ، فاختلط المسلمون و المشركون ، و انهزم المسلمون أسوأ هزيمة ، وقتلوا ، و اتبعهم المشركون ، فجعل قطبة بن عامر يصيح : يا قوم ! يقتل الرجل مقبلا أحسن من أن يقتل مدبراً ! فما يثوب (٥) إليه أحد ، ثم تراجعوا ، فأخذ اللواء ثابت بن أقرم ، وصاح : يا للانصار ! ! فأتاه الناس من كل وجه وهم قليل ، وهو يقول : إلى أيها الناس ! فلما نظر إلى خالد بن الوليد قال : خذ اللواء يا أبا سليمان ! فقال : لا آخذه ، أنت أحق به ، أنت رجل لك سن (٦) ،

(١) فى الأصل : « عياية » .
(٢) عرقب فرسه : قطع عرقوبها ، و هو الوتر الذى خلف كعبها من مفصل القدم و الساق ، و كانت تلك عادتهم إذا حمى البأس ، قالوا : و كانت فرس جعفر أول فرس عرقبت فى الاسلام .
(٣) فى الأصل : « مما قبل من يديه » .
(٤) فى الأصل : « اثنتين وسبعين » .
(٥) ثاب يثوب : رجع .
(٦) فى الأصل : « شن » .

و قد شهدت بدراً ، قال ثابت : خذه أيها الرجل ! فو الله ما أخذته إلا لك !
فأخذه خالد فحمله ساعة ، وجعل المشركون يحملون عليه ، فثبت حتى تكركر (١)
المشركون ، وحمل بأصحابه ففض جمعاً من جمعهم ، ثم دهمه منهم بشر كثير (٢) ،
فانحاش (٣) بالمسلمين فانكشفوا راجعين ، وقد قيل : إن ابن رواحة قتل مساء ،
فبات خالد فلما أصبح غدا ، وقد جعل مقدمته ساقة ، وساقته مقدمة ، وميمنته ميسرة ،
وميسرته ميمنة ، (فأنكر المشركون) (٤) ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيأتهم ،
فقالوا : قد جاءهم مدد ! ! ورعبوا ، فانكشفوا منهزمين ، فقتلوا منهم مقتلة لم يقتلها
قوم ، والأول أثبت : أن خالداً انهزم بالناس فعيروا بالفرار ، وتشاءم الناس (٥)
به ، فلما سمع أهل المدينة بقدومهم تلقوهم ، وجعلوا يحثون فى وجوههم التراب
و يقولون : يا فرار ! أفررتم فى سبيل الله ؟ فيقول رسول الله ﷺ : ليسوا
بفرار ، ولكنهم كرار إن شاء الله !
فانصرفوا إلى بيوتهم فلزموها ، فانهم كانوا إذا خرجوا صاحوا بهم : يا فرار !
أفررتم فى سبيل الله ؟ وكان الرجل يدق عليهم فيأبون يفتحون له لئلا يقول (٦) :
ألا تقدمت مع أصحابك فقتلت ؟ حتى جعل رسول الله ﷺ يرسل إليهم رجلا
رجلا ، يقول : أنتم الكرار فى سبيل الله ! و كان بين أبى هريرة و بين ابن عم
له كلام ، فقال : إلا فراركم يوم مؤتة ! فما درى ما يقول له .

(١) كركره عن الشئ : رده ودفعه وحبسه ، فتكركر : ارتد .
(٢) فى الأصل : « كبير » .
(٣) انحاش بهم : جمعهم فتصرف بهم ثم نفر بجمعهم .
(٤) فى الأصل مكان ما بين القوسين : « فأنكروا » ، و هذه أبين للسياق .
(٥) أى تشاءموا بخالد . (٦) فى الأصل : « تقول » .

و كان رسول الله ﷺ - لما التقى الناس بمؤتة - جلس على المنبر وكشف
له ما بينه وبين الشأم ، فهو ينظر إلى معتركهم فقال : أخذ الراية زيد بن حارثة ،
فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت فقال : الآن حين استحكم الايمان
فى قلوب المؤمنين تحبب إلى الدنيا ! فمضى قدماً حتى استشهد ، فصلى عليه وقال :
استغفروا له ! و قد دخل الجنة وهو يسعى .
ثم أخذ الراية جعفر بن أبى طالب فجاءه الشيطان فمناه الحياة وكره إليه
الموت ، فقال : الآن حين استحكم الايمار فى قلوب المؤمنين تمنينى الدنيا ! ثم
مضى قدما حتى استشهد ، فصلى عليه ودعا له ، ثم قال : استغفروا لأخيكم فانه
شهيد دخل الجنة ، بجناحين من يا قوت حيث شاء من الجنة .
ثم أخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة فاستشهد (١) ، ثم دخل الجنة
معترضاً ، فشق ذلك على الأنصار ، فقال : أصابته الجراح ، قيل : يا رسول الله
ما إعراضه ؟ قال : لما أصابته الجراح نكل (٢) ، فعاتب نفسه فشجع ، فاستشهد
فدخل الجنة فسرى عن قومه .
وقال يومئذ : خير الفرسان أبو قتادة ، وخير الرجال (٣) سلمة بن الأكوع ،
ولما أخذ خالد الراية قال ﷺ : الآن حمى الوطيس (٤) (٥) . »

(١) فى الأصل : « فاستشهدوا » .
(٢) نكل الرجل عن الأمر : جبن و تخاذل .
(٣) الرجال : جمع راجل ، وهو الذى لا فرس له ، فهو يركب رجليه فى الجهاد .
(٤) هذه الكلمة لم تسمع إلا من رسول الله ﷺ ، قالوا : و ذلك يوم
حنين ، وقيل يوم مؤتة ، و الوطيس : حفيرة تحفر فى الأرض فتوقد
فيها النار ويصفر رأسها ، ويخرق فيها خرق للدخان ثم يوضع فيها اللحم
ويسد ، ثم يؤتى من الغد و اللحم غاب لم يحترق ، ولحمها شواء ، و هذه
الكلمة من بليغ المجاز فى شدة الحرب و قيامها و احتدامها .
(٥) إمتاع الأسماع غزوة موتة .

عبد الله بن رواحـــة يتمثل بأبيات من الشعر :

وجاء فى رواية للجزرى فى كتابه « أسد الغابة »

أخبرنا عبد الله بن أحمد بن على باسناده إلى يونس بن بكير عن ابن اسحاق ، حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال: سار عبد الله بن رواحة يعنى إلى مؤتة و كان زيد بن أرقم يتيما فى حجره فحمله على حقيبـــة رحله ، و خرج به غازياً إلى مؤتة فسمعه يقول زيد من الليل يتمثل بأبياته التى قال :

إذا أدنيتنى وحملت رحلى ... مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ... و لا أرجع إلى أهلى ورائى
و جاء المؤمنون و غادرونى ... بأرض الشام مشهور الثواء
وردك كل ذى نسب قريب ... إلى الرحمن منقطع الاخاء
هنالك لا أبالى طلع بعل ... و لا نجل أسافلها رواء

فلما سمعه زيد بكى فخفقه بالدرة وقال ما عليك يالكع أن يرزقنى الله الشهادة وترجع بين شعبتى الرحل ، و لزيد بن أرقم يقول ابن رواحة :

يا زيد زيد اليعملات الذبل ... تطاول الليل هديت فانزل

يعنى انزل فسق بالقوم .

ابن رواحة يودعه القوم إلى مؤتة : لما ودع النـاس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم ، و ودعوا عبد الله بن رواحة بكى ، قالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة فقال : أما و الله ما بى حب الدنيا و لا صبابة إليها ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ « و إن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » فلست أدرى كيف بالصدر بعد الورد ، فقال المسلمون : صحبكم الله و ردكم إلينا صالحين ، ورفع إليكم ، فقال ابن رواحة :

لـكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع يقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء و الكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثى ... يا أرشد الله من غاز و قد رشدا

ثم أتى عبـــد الله رسول الله ﷺ فودعـــه .

عبد الله يخاطب نفسه بعد مقتل جعفر بن أبى طالب : روى عبد السلام بن النعمان ابن بشير أن جعفر بن أبى طالب حين قتل دعا الناس عبد الله بن رواحة و هو فى جانب العسكر فتقدم فقاتل ، وقال يخاطب نفسه :

يا نفس إلا تقتلى تموتى ... هذا حياض الموت قد مليت
و ما تمنيت فقـــد لقيت ... إن تفعلى فعلهما هـــديت

و إن تأخرت فقد شقيت ،

يعنى زيداً و جعفراً ، ثم قال : يا نفس إلى أى شئ تتوقين ، إلى فلانة ، امرأته فهى طالق ، و إلى فلان و فلان غلمـان له فهم أحرار ، و إلى معجف حائط له فهو لله و لرسوله ، ثم قال :

يا نفس مالك تكرهين الجنة ... أقسم بالله لتنزلنـــــه
طائعـــة أو لتكرهنـــه ... فطالما قد كنت مطمئنة
هل أنت إلا نطفة فى شنة ... قد أجلب الناس و شدوا الرنة

و روى مصعب بن شيبة قال : لما نزل ابن رواحة للقتال طعن فاستقبل الدم بيده فداك به وجهه ثم صرع بين الصفين فجعل يقول : يا معشر المسلمين : ذبوا عن لحـــم أخيكم ، فجعل المسلمون يحملون حتى يجوزونه فلم يزالوا كذلك حتى مات مكانه (١) .

و كانت غزوة مؤتة فى جمادى الأولى سنة ثمان .

(١) أسد الغابة للجزرى ، ترجمة عبد الله بن رواحة .

من أعلام المسلمين فى الهند :

الامام أبو الحسنات محمد عبد الحى اللكنوى

(٢)

الأستاذ محمد أرشد الأعظمى الندوى
أستاذ الأدب فى دار العلوم فلاح الدارين (غجرات)

نظرة على كتاباته :

لا يسع الباحث الدارس لمؤلفات الشيخ اللكنوى إلا أن يعترف بعبقرية شخصيته وخصب ذهنه ، و رجاحة عقله ، و تفقهه ، و توسع معرفته فى العلوم ، و خاصة فى الفقه و الحديث ، فانه قد أوتى فى هـذا المجال علماً غزيراً و عقلا نافذاً وفهماً عميقاً قلما يظفر به عالم دينى أو مؤلف إسلامى ، كما يلمس الدارس فى كتاباته ، القدرة البيانية الفائقة ، و الاشراق العربى الكامل ، و الفكرة الواضحة التى ليس فيها غموض و لاخفاء ، كما يدهش بمعرفـة الشيخ الفقهية العميقة بالمذاهب الفقهية و بمتمسكاتهم و استشهاداتهم القرآنية و الحديثيـة ، مع إدراكه أن الشيخ يجنح إلى المذهب الحنفى و لكن استشهاداً بالنصوص واستمساكاً بالدلائل ، دون الاستسلام للعصبية المذهبية ، وهذا التماسك العلمى والقوة الاستدلالية هو الذى يجعله يميل فى كثير من المواضع إلى رأى الامام الشافعى رحمه الله أو إلى ما ارتآه صاحبا أبى حنيفة النعمان . أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ومحمد بن حسن الشيبانى .

ثم يلمس القارىء فى كتابات الشيخ الانفتاح الذهنى و التنور الفكرى والنظر إلى مفاهيم النصوص ، دون الشدة المذهبية الجافـة - تتكاثر فى الوسط العلمى - كما يرى كل من نظر فى تأليفه الاحاطة الكاملة واستيفاء التحقيق و استيعاب الجوانب للموضوع الذى يتحدث عنه ، كما يقدم خلاصة الكلام و زبدة البحث فى عبارة موجزة واضحة مشرقة ، بدون تعقيد فى البيان أو التواء فى اللسان ، وهنا نراه على قمة من البراعة البيانية و الفصاحة الأدبية ، و بالجملة فقد أولاه الله مواهب فذة

نادرة عجيبة ، فى استخراج العلم و تقديم المواد ، فى فهم المسئلة و إدراك دقائقها و كل هذه أضفت على كتاباته وفيراً من الجمال و كثيراً من البهاء ، ترى كتاباته العربية ناصعة رشيقة ، شيقة بهية ، إلى جانب ما رزق الكم البكير من الرضاء والقبول ، فى كل زمان و مكان .

نموذج من كتاباته :

هنا نسوق بعض المقتطفات من عباراته التى تبين صدق ما نقول :

يرد القول بأن روايات أبى حنيفة بلغت إلى سبع عشرة فحسب : فيقول :

« إن هذه الكلمة أن روايات أبى حنيفة بلغت إلى سبع عشرة مخالفـة للدلائل القطعية المؤيدة بالأمور النقلية اليقينية ، و للمشاهد البينة ، و ذلك لأن من نظر تصانيف تلامذة الامام الذين أسندوا الروايات فيها إلى أستاذهم و أسندوها إلى الرسول ﷺ باسنادهم كموطأ الامام محمد و كتاب الحج له ، و كتاب الآثار له ، و السير الكبير له ، و كتاب الخراج للامام أبى يوسف وغير ذلك ، وجد فيها روايات الامام أزيد من مأة بل مأتين فما معنى كون رواياته سبع عشرة فقط .. .. .. و أيضاً قد اتفقت كلمات الفقهاء و المحدثين و المؤرخين بل جميع العلماء المعتبرين ، على أن أبا حنيفة كان مجتهداً و إجماعهم دال على أنه بلغته أحاديث كثيرة ، فمن الظاهر أن من لم تبلغه من الأخبار النبوية إلا سبعة عشر كيف يجتهد و يستنبط (١) » .

ثم إقرأ هذه العبارة التى تفسر الهضوم الخمسة التى تتعاقب فيما بينها :

« إعلم أن الغـذاء له هضوم خمسة ، الأول : هضم فى الفم بالمضغ باعانة الريق الذى فيه حرارة غريزية ، الثانى : هضمه فى المعدة ، فانه إذا دخل الغذاء من الفم إليها ليهضم هناك هضماً تاماً ، و عند ذلك يحصل منه و مما يخالطه من المشروبات جوهر شبيه بالكشك الثخين ثم ينجذب النذاء المنهضم من المعـدة ، أما لطيفه فالى الكبد ، و هو عن يمين المعدة ، و أما ثقله فالى الأمعاء ، و هو

(١) مقدمة عمدة الرعاية فى شرح الوقاية ص ٣٥ .

الخارج من المبرز ، فاذا دخل لطيفه فى الكبد انهضم هناك هضماً ثالثاً ، فيكون ألطف من الأول فتكون من هناك أخلاط أربعة ، الدم ، البلغم ، الصفراء ، السوداء ، و فضلة هذا الهضم يندفع أكثره بالبول ثم يجرى منه الدم مختلطاً بالأخلاط الباقية بقدر الحاجة إلى العروق ، و هناك ينهضم هضماً رابعاً ، يتميز حينئذ لطيفه من كثيفه ثم ينفصل اللطيف من العروق و يتصل بالأعضاء فيأخذ كل عضو منه حظه ، وهناك ينهضم هضماً خامساً ، حتى تستحيل صورته الدموية إلى الصور العضوية فيلتصق التصاقاً تاماً (١) .. ..

لعلك لمست معى صفاء اللغة و وضوح المراد ، و سلاسة العبارة و نصاعة المعنى ، و مصنفات الامام اللكنوى تحوى كثيراً من القطع الرائعة و العبارات المشرقة التى لا تخفى على من له إلمام بها و اطلاع عليها .

لا يغيب عن بالك - أيها القارىء - أن كتبه و مؤلفاته الجامعة ، و تعليقاته العلمية و إفاداته الحديثية ، لا تزال أكبر مرجع للطلاب و الأساتذة فى المدارس الاسلامية فى القارة الهندية ، لا تجد هداية المرغينانى و لا شرح الوقاية لصدر الشريعة و لا مؤطا الامام محمد فى الهند و باكستان بل فى بنجلاديش وأفغانستان حتى فى اليمن (١) إلا متحلية تعليقاته القيمة و إفاداته العلمية الغالية يستفيد منها الطلاب و الأساتذة ، و يجدون فيها حلا لكل مشكلة و مدداً لكل معضلة (٢) .

(١) عمدة الرعاية التعليق على شرح الوقاية ص ٧٠ .

(١) كما ذكر الأستاذ الفاضل تقى العثمانى فى مذكرات رحلته فى الصين أنه وجد هنا نسخ شرح الوقاية محشاة بعمدة الرعاية للشيخ الامام اللكنوى رحمه الله ، أنظر مجلة « البلاغ » الأردية التى تصدر من كراتشى فى باكستان ، عدد ربيع الأول سنة ١٤٠٦هـ .

(٢) انظر كتابات فضيلة الشيخ الكبير عبد الفتاح أبو غدة التى كتبها فى « الرفع و التكميل فى الجرح و التعديل » و فى « الأجوبة الفاضلة » ترجمة لحياة الامام أبى الحسنات محمد عبد الحى اللكنوى و كمالاته العلمية ، إنها جامعة ❁

كثرة مؤلفاته :

(إذا ذكر المؤلفون أصحاب التصانيف الكثيرة التى زادت على الخمسين أو المائة كتاب ، ذكر الامام عبد الحى اللكنوى فى طليعتهم ومقدمتهم غير مدافع ، ذلك لأن تصانيفه بلغت نحو مائة وعشرة كتب ، و إذا قيست كثرتها هذه فى جانب عمره القصير الذى كان ٣٩ بدت كثيرة جداً .

أغلبها مطبوع فى حياته أحسن طباعة بأتقن تصحيح و أنضر إخراج يتمتع به عصر الطباعة الذى كان فيه (١) .

هذه المؤلفات الكثيرة الضافية العائلة فى مختلف جوانب العلم ، من علم الصرف والمنطق والحكمة و الأخبار والنسب ، وأغلبها فى الفقه و الحديث ، من أشهرها : (١) التعليق الممجد على مؤطأ الامام محمد ، (٢) حواشى على الهداية للمرغينانى (٣) عمدة الرعاية على شرح الوقاية ، (٤) إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الامام ، (٥) السعاية فى شرح ما فى شرح الوقاية ، (٦) تذكرة الراشد برد تبصرة الناقد ، (٧) طرب الامثال فى تراجم الأفاضل ، (٨) الفوائد البهية فى تراجم الحنفية (٩) الرفع و التكميل فى الجرح و التعديل ، (١٠) الآثار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة (١١) ظفر الأمانى فى شرح مختصر الجرجانى ، (١٢) إقامة الحجة على أن الاكثار فى التعبد ليس ببدعة ، (١٣) وتحفة الأخيار فى إحياء سنة سيد الأبرار ، و غيرها كثيرة من مؤلفاته الجامعة النافعة ، إنما ذكرت هذه كغيض من فيض وقطرة من بحر ، لو ذكرت كلها لطال بنا الكلام ، من شاء الاطلاع على كلها و جلها فليرجع إلى نزهة الخواطر و بهجة المسامع و النواظر ، المجلد

❁ حافلة مستفيضة ، و خير ما كتب عن حياة الامام اللكنوى ، و لكن فى الاعتبار أن الشيخ أبو غدة هو الذى أخرج كتب الشيخ اللكنوى و علق عليها و حققها و نشرها فى طبعات قشيبة ناضرة من مكتب المطبوعات الاسلامية بحلب .

(١) مقدمة الأجوبة الفاضلة عن عبد الفتاح أبو غدة ص ١٣ .

الثامن للشيخ عبد الحى الحسنى ، تقدمة كتاب (الرفع و التكميل) التى كتبها الشيخ أبو غدة ، فان فيها كفاية و شفاية .

وقد رزقت مؤلفاته الغالية الجامعة هذه قبولا عالياً ورواجاً عاماً بين الطلاب و الأساتذة فى الهند و خارجها الذى يدل على سعادة حظه وكونه موفقاً من الله ومقبولا لديه فانه نفسه يشكر الله سبحانه على هذا : (إنى أشكر الله شكراً متوالياً على أن رزق لتصانيفى قبولا عالياً وجعلها محمودة بألسنة الطلبة و الكملة و رزقها شيوعاً تاماً و اشتهاراً عاماً ، حتى توجهت إليها الأفاضل من الديار البعيدة والأمصار الشاسعة ولم يعبها إلا الحسود العنود وهو فى زمرة الفضلاء مطرود) (١).

مقتبسات :

يقر كل من نظر فى تآليف الشيخ عبد الحى أنها تستوفى التحقيق العلمى الناصع وتحوى النقول النادرة الفاصلة ، والاستيعاب لكل ما فى المسئلة أو الباب حتى كأنه تخصص طوال عمره فى الموضوع الذى يبحثه لا غير .

قد آتاه الله تعالى ذوقاً مرهفاً ، وحساً علمياً انقياً ، ودقة نادرة فى الفهم ، وقوة بالغة فى الحفظ و قدرة عجيبة على التأليف بأسرع وقت و أنصع أسلوب .

أنك لا تلمح فى كلامه مسحة العجمية وهو هندى الدار و المولد و اللغة .

يتجلى لك من أسلوبه التزام الأدب ، و تحكيم العلم فى ميدان المراقة ، لا السفسطة و الاقذاع .

كنت أتعجب كثيراً من قدرة الشيخ على استخراج النصرص المتغلغلة فى بطون الكتب و أكثرها كان مخطوطاً ، و من اهتدائه إلى استلالها من مطاويها ، حتى كأن بيده منوراً تمتد أشعته الكاشفة إلى بطون الكتب فى الخزائن الممتعة فتنير عباراتها و تخرج مكنوناتها .

لا يلحظ القارى فى كتب الامام اللكنوى أى أثر للاستعلاء أو الانتفاح فى العلم بل يلمس فيها مسحة التصوف الرقيق البصير ، و التواضع الجم النبيل ،

(١) مقدمة عمدة الرعاية ص ٣٠ .

المسحوب بالعلم و الأدب الشرعى ، قد رزق القبول فى الناس وعند العلماء كافة ، بخلاف منافسيه ، فانهم لم يحرزوا ذلك (١) .

قد توفى لليلة بقيت من ربيع الأول سنة ١٣٠٤هـ و له من العمر تسع و ثلاثون سنة ، و دفن بمقبرة أسلافه .

يقول الشيخ عبد الحى الحسنى :

كنت حاضراً فى ذلك المشهد و كان ذلك اليوم من أنحس الأيام ، و اجتمع الناس فى المدفن من كل طائفة و فرقة أكثر من أن يحصر ، و قد صلوا عليه ثلاث مرات (٢) رحمه الله رحمة واسعة و أسكنه فسيح جناته وأمطر عليه شآبيب رضوانه .

دعـــاء

شعر : الأستاذ أحمد حسن القضاة
عضو رابطة الأدب الاسلامى

و فى ظلمة الليل فى ساعة ... تقود النفوس لنوم ثقيل
و يحلو الرقاد بأحلامه ... ويغشى الخلائق ليل طويل
رفعنا إليك أكف الضرا ... عة بين الرجاء و وسط العويل
إلهى .. بعفوك فرج و تب ... علينا وهيىء رشاد السبيل !
وآت لنا النصر والطف بنا ... و ثبت قلوباً هواها يميل

(١) اقتبست هذه الجمل الحساسة البعيدة المدى من تقدمة « الأجوبة الفاضلة » المكتوبة بقلم الشيخ عبد الفتاح أبى غدة فانه لم يكن بد منها فى ترجمة الامام اللكنوى رحمه الله .

(٢) نزهة الخواطر المجلد الثامن للعلامة عبد الحى الحسنى .

كتب حديثة .

تفسير سورة الاخلاص

تلقينا من الدار السلفية فى بمبائى (الهند) لصاحبها فضيلة الشيخ مختار أحمد الندوى و أولاده ، كتاباً قيماً باسم (تفسير سورة الاخلاص) من تأليف شيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية الحرانى ، رحمه الله ، و الكتاب من أهم مؤلفاته ، يشير إلى علو مكانته و تبحره فى العلوم و المعارف الكلامية ، و قد تجلت فى هذا الكتاب خصائصه العلمية التى تفرد بها بين علماء الاسلام و أئمته من كثرة الاستشهاد بالكتاب و السنة ، و تفنيد مزاعم الفلاسفة و المتكلمين و تضليلاتهم .

لقد قام الفاضل الدكتور عبد العلى عبد الحميد حامد بترتيب هذا الكتاب من خلال فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، و لشيخ الاسلام رسالة مستقلة فى هذا الموضوع باسم (جواب أهل العلم و الايمان فى أن « قل هو الله أحد » تعدل ثلث القرآن) و لكن تفسير سورة الاخلاص كتاب مستقل له ، يبحث فى توحيد الله تبارك و تعالى و ما لهذه العقيدة من أهمية أساسية لدى المسلمين عامة و خاصة ، و التى لا يكتمل الاسلام بدونها أو بالتهاون فى شأنها مهما كانت الظروف .

و قد أفادنا محقق هذا الكتاب الدكتور عبد العلى عبد الحميد فى مقدمته بأن « تفسير سورة الاخلاص » طبع مرات عديدة ، و لأول مرة طبع فى

المطبعة الحسينية المصرية عام ١٣٢٣هـ ، من نسخة قرئت على الأستاذ الفاضل آلوسى زاده السيد محمود شكرى أفندى ، و ظهرت منه طبعات أخرى متعددة ، منها ما صدر باعتناء الشيخ محمد حامد الفقى رئيس أنصار السنة المحمدية .

أما هذه الطبعة من الكتاب التى أصدرتها الدار السلفية فهى مأخوذة رأساً من فتاوى شيخ الاسلام أعدها و رتبها الدكتور عبد العلى و حققها تحقيقاً علمياً موسعاً ، و بذل فى إخراجها أقصى جهوده فى التصحيح و التهذيب و التنقيح كما يقول هو بنفسه :

« و قمنا بتخريج الأحاديث و الآثار مع بيان درجتها من الصحة والضعف ، و ترجمة من احتاج إلى التعريف من الرواة ، و لم نستوعب تخريج الأحاديث النبوية ، بل اكتفينا - فى الغالب - بعزوها إلى الصحاح الستة ، و مسند أحمد ، إذا وجد الحديث فيها أو فى أحدها » .

ونحن إذ نشيد بهذا المجهود العلمى فى إخراج هذا الكتاب فى ثوب جميل من الطباعة الأنيقة ، والورق الصقيل ، ندعو الله سبحانه أن يثقل هذا العمل فى مجال ترسيخ عقيدة التوحيد فى القلوب و نشرها بين المجتمعات البشرية ، فهى العمدة الأولى فى بناء السيرة الاسلامية ، و عليها يتوقف الدين الخالص ، و نهنئ المحقق و أصحاب الدار السلفية على هذا التوفيق ، وفقنا الله لتحقيق مرضاة الله فى العلم و العمل ، و صلى الله على خير خلقه محمد و على آله و صحبه أجمعين .

وسنتحدث فى العدد القادم - باذن الله - عن كتاب (علم رجال الحديث) لفضيلة الدكتور تقى الدين الندوى ، أستاذ الحديث فى جامعة الامارات بالعين .

(سعيد الأعظمى)